علماء
اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

علماء اللغة العربية

د.محمد غياث المكتبي عبد الرزاق كيلو

دار المكتبي

الطبعة الأولى

2017 - 1438

جميع الحقوق محفوظة

يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل الرقمي والمسرع أو الاختزان بالحاسبات الإلكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي.

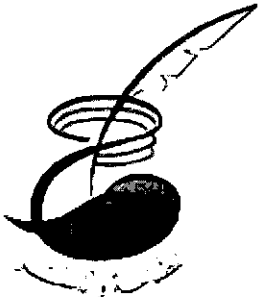

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع

دمشق - الشارقة - القاهرة
دمشق هاتف: 00963112248433 فاكس: 00963112248432 ص.ب: 31426
الشارقة هاتف: 0097165512262 فاكس: 0097165512264 ص.ب: 3309
Email almaktabi@gmail.com
www.almaktabi.com

الفَــراهِيدي
أذكَى العرب
(100 ـ 170هـ)

الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ، أَذكَى العربِ، العالمُ الثَّبتُ الحجَّةُ، والشَّاعرُ المُحدِّثُ، والرَّاويَةُ النَّحويُّ، والمُوسيقيُّ واضِعُ علمِ العَروضِ، غَنيٌّ عَنِ التَّعريفِ إِذا ما تَحدَّثنا عَنْ عُلماءِ العربِ والإِسلامِ الأَوائِلِ الَّذِيْنَ بِجهودِهِمُ العَظيمةِ أُقيمَ الصَّرحُ العلميُّ والثَّقافيُّ لِهذِهِ الأُمَّةِ الَّذِي ازدَهَتْ بِهِ الحضارةُ العربيَّةُ والإِسلاميَّةُ زُهاءَ أَلفٍ وأَربعمئةِ عامٍ ونَيِّفٍ.

الخليلُ بنُ أَحمدَ الفَراهيديُّ، أَبو عَبدِ الرَّحمنِ، أَمضَى حياتَهُ في خِدمةِ لُغَتِنا الجَميلةِ الَّتِي هيَ أَروعُ وأَغنَى لُغاتِ الأَرضِ قاطبَةً، ولَمْ يَألُ جُهداً في تَقريبِ بَعيدِها، وبيانِ غامضِها، أَو قَنصِ شاردِها، حَتَّى صارَ الخَليلُ بنُ أَحمدَ الفَراهيديُّ هوَ اللُّغَةُ العربيَّةُ، وصارَتِ اللُّغَةُ العربيَّةُ هيَ الخَليلُ بنُ أَحمدَ الفَراهيديُّ.

بَلْ إِنَّ الخَليلَ بنَ أحمدَ الفَراهيديَّ، مِنْ شِدَّةِ وَلَعِهِ بِاللُّغَةِ العربيَّةِ وعُلومِها، ومِنْ حرصِهِ الكبيرِ عَلى خِدمَتِها، قَضَى نَحبَهُ وهوَ يُفكِّرُ بِوضعِ علمٍ جَديدٍ فيها، ولو كتبَ اللهُ ﷻ لَهُ

طولَ العُمرِ والبَقاءَ في الدُّنيا ـ ولا أُبالغُ القَولَ فيهِ ـ لأَدركَ بِعلمِهِ وجُهدِهِ وذَكائِهِ مِنْ أَسرارِ لُغَتِنا الرَّحبَةِ وعُلومِها ما لَمْ يُدرِكْهُ العُلماءُ بَعدَهُ حَتَّى يَومِنا هذا.

وكَما هوَ مَعلومٌ لِكُلِّ قارئٍ أَو مُثَقَّفٍ، أَنَّ الخَليلَ بنَ أحمدَ الفَراهيديَّ أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ مُعجماً عِلمياً مُفَهرساً ومُبوَّباً لأَلفاظِ اللُّغةِ العربيَّةِ، يَشرحُ فيهِ مَعانيها، ويُبيِّنُ مُرادِفاتِها، ويُحدِّدُ صَحيحَها وغَريبَها وشاذَّها، ثُمَّ قَلَّدَهُ عُلماءُ اللُّغَةِ المُعجميُّونَ بِهذا العَملِ بَعدَهُ، فَقَدْ أَسهَمَ إِسهاماً كبيراً في صيانَةِ العربيَّةِ مِنَ اللَّحنِ، وفي حِفظِ الكَثيرِ مِنْ مُفرداتِها وأَلفاظِها مِنَ الضَّياعِ أَو الاندثارِ.

وكما أَلمحَ المُؤَرِّخُونَ إِلى غَزارةِ عِلمِهِ، وإِلَى تَفرُّدِهِ بِأَبحاثِ اللُّغةِ العربيَّةِ في عَصرِهِ، فَقَدْ أَشارَ مُعاصِروهُ مِنَ العُلماءِ والأَعيانِ ـ بَعدَ أَنْ خَبروا وعايَنوا قُوَّةَ علمِهِ وحجَّتِهِ ـ إِلَى أَنَّهُ أَذكَى عُلماءِ العربِ، حَتَّى قالَ فيهِ أَحدُهُمْ: «لَمْ يَكُنْ في العربِ أَذكَى مِنَ الخليلِ بنِ أحمدَ الفَراهيديِّ، وهوَ مفتاحُ العُلومِ وصَرفُها»[1].

ويَقولُ عَنهُ العلَّامةُ الصّوليُّ في كتابِهِ «أَخبارِ أَبي تَمَّام»: «قَدْ كانَ الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ أَذكَى العربِ والعجمِ في وَقتِهِ بِإِجماعِ أَكثرِ النَّاسِ، فَنفذَ طَبعُهُ في كُلِّ شَيءٍ تَعاطاهُ».

وقالَ سَفيان بنُ عُيينَةَ: «مَنْ أَحبَّ أَنْ يَنظُرَ إِلى رَجلٍ خُلِقَ مِنَ الذَّهبِ والمِسكِ فَلْيَنظُرْ إِلى الخَليلِ بنِ أحمدَ الفَراهيديِّ»[2].

---

(1) كتاب الأوائل لأَبي هلال العسكريّ.

(2) كتاب الصّاحبي في فقه اللّغة لابن فارس.

فَمَنْ هُوَ الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ الَّذِي سارَتِ الرُّكبانُ بِعلمِهِ؟ وما هيَ أَهمُّ مَعالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ في الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

هُوَ أبو عبدِ الرَّحمنِ الخليلُ بنُ أَحمدَ بنِ عمرو بنِ تَميمٍ الفراهيديُّ الأَزديُّ اليَحمديُّ البَصريُّ، نسبةً إِلى جَدِّهِ الأَعلَى فَرهودَ بنِ شَيبانَ، ويَنتهي نَسبُهُ إِلى «نَضرِ بنِ الأَزدِ» الَّذِي يُقالُ لهُ «أَزد عُمانَ»، وهُمْ مِنْ قَبائلِ زَهرانَ بنِ كعبٍ، واشتُهروا بِالفَراهيدِ[1]، وكانَ مِنهُمُ «الحُرُّ بنُ الحُرِّ» وكانَ فارسَ أَهلِ زمانِهِ، ومِنهُمُ الخليلُ بنُ أَحمدَ.

ويُقالُ البَصريُّ نسبةً إِلى مَدرسَةِ البَصرةِ الَّتِي أَسَّسَها واضعُ علمِ النَّحوِ «أَبو الأَسودِ الدُّؤليُّ»[2]، فالفَراهيديُّ تَلقَى علمَهُ مِنْ شيوخِ وعلماءِ البَصرةِ تلاميذِ أَبي الأَسودِ الدُّؤليِّ.

كَما يُقَالُ: إِنَّ أَوَّلَ مَنْ سُمِّيَ بِأَحمدَ بَعدَ النَّبيِّ المُصطفَى ﷺ والِدُ الخَليلِ، فَكانوا يَرونَ أَنَّ بركةَ الاسمِ ظَهَرَتْ في الخَليلِ[3].

---

(1) الفراهيد: جمع فرهود، والفرهود: الغليظ، فيقال: تفرهد الولد إذا سمن (كتاب الاشتقاق لابن دريد).

(2) أبو الأسود الدُّؤليُّ أسلم قبل وفاة النبي صصص ولكنه لم يره فعدوه من التابعين. استعمله الخلفاء الراشدون في عدة وظائف، وكان والي البصرة في عهد عليٍّ رضي الله عنه وأخذ عنه علم النحو ووضعه بأمره. توفي سنة 69هـ.

(3) كتاب الأوائل لأبي هلال العسكريّ، وكتاب اللآلئ في شرح أمالي القالي للبكريّ الأندلسيّ.

ولِدَ «الفَراهيديُّ» في عُمانَ عَلى ساحلِ الخَليجِ الفارسيِّ سنةَ (100) هجريَّةً[1]، وعاشَ فيها طفولَتَهُ الأُولَى، ثُمَّ انتقَلَ إلى البَصرةِ في العراقِ لِيَتَلقَّى العِلمَ عَلى شُيوخِها وعُلمائِها بَعدَ أَنْ ظَهرَتْ فيهِ المُيولُ نَحوَ تَعلُّمِ الأَدبِ وعلومِ اللُّغةِ، ورُبَّما كانَ قَدْ تَلقَّى شَيئاً مِنْ ذَلِكَ بينَ قومِهِ لأَنَّ الفراهيدَ كانوا مِنْ أَفصحِ العربِ لِساناً، كَما قيلَ عَنهُمْ.

طافَ «الفَراهيديُّ» في البَصرةِ عَلى كوكبةٍ مِنْ عُلمائِها وشُيوخِها، يَسمعُ إِليهِمْ، ويأخذُ عَنهُمْ عُلومَ اللُّغةِ والدِّينِ، فَلازمَ في البِدايَةِ شَيخَ عُلماءِ البَصرةِ في عُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ «أَبا عمرو بنَ العلاءِ»[2] وأخذَ عَنهُ علوم اللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ أَدبٍ وشعرٍ ونَحوٍ، ثُمَّ لازمَ بَعدَهُ فَقيهَ البَصرةِ «أَيوبَ السختيانيَّ»[3]، ومُحدِّثَها «عاصماً الأَحولَ»[4]، كما سَمعَ إِلى عَددٍ مِنْ عُلماءِ البَصرةِ، كَعثمانَ بنِ حاضرٍ الأَزديِّ والعوَّامِ بنِ حَوشَبَ، وغالبِ بنِ خطَّافٍ.

وقَدْ ذَهبَ «الفَراهيديُّ» في شَبابِهِ مَذهبَ «الإِباضيَّةِ»[5]، ولَكِنَّهُ رَجعَ عَنهُ، والتزمَ مذهبَ عامَّةِ المُسلمينَ عندما لازمَ شَيخَهُ «السختيانيَّ».

---

(1) ويُقَالُ: إِنَّه ولد سنة 105هـ في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وشهد زوال الدولة الأموية، وعاصر خلفاء بني العباس حتى وفاتهِ.

(2) أبو عمرو بن العلاء بن عمار التّميمي المازنيّ البَصريّ، كانَ أعلم الناس في عصره بِالأدب والعربية والقرآن والشعر. توفي سنة 154هـ.

(3) أيوب السختياني: أبو بكر بن تميمة السختياني البصريّ، كان سيّد فقهاء عصره. توفي سنة 130هـ.

(4) عاصم الأحول: هو عاصم بن سليمان الحافظ البصريّ مِنْ أئمة العلم البصريين، ولي حسبة الكوفة وقضاء مكة. توفي سنة 141هـ.

(5) الإباضية: فرقة انشقّت عن الخوارج، وزعيمهم عبد الله بن إباض التّميمي، ومِنْ أصولهم التي اتفقوا

لَقَدْ صَبَّ «الفَراهيديُّ» جُلَّ اهتمامِهِ عَلى عُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ أَدبٍ ونَحوٍ وشِعرٍ، فانْكَبَّ عَليها بَحثاً وتَأْليفاً، وصارَ لَهُ في البَصرةِ مَجلسُهُ الخاصُّ يَجتمِعُ إِليهِ فيهِ طَلبَةُ العِلمِ وعامَّةُ النَّاسِ، وبَعضُ العُلماءِ الَّذِيْنَ يُراجعونَهُ بِاستمرارٍ مِنْ مُختلفِ الأَصقاعِ ويَسأَلونَهُ فيما أشكلَ عَليهِمْ مِنْ مَسائِلِ اللُّغةِ أو النَّحوِ أَو الشِّعرِ، وذاعَ صيتُهُ بينَ النَّاسِ في الحواضرِ والبُلدانِ خاصَّةً بَعدَ وفاةِ أُستاذِهِ «أَبي عمرو بنِ العلاءِ» وتَزَعُّمِهِ لِمَدرسَةِ البَصرةِ مِنْ بَعدِهِ.

اشْتُهِرَ «الفَراهيديُّ» بِزُهدِهِ ووَرعِهِ وبِتواضُعِهِ الجَمِّ، فَكانَ يَحجُّ سَنةً ويَغزو في سَبيلِ اللهِ مَعَ الجيوشِ الإِسلاميَّةِ سَنةً، وما بَينَهُما كانَ خادماً أَميناً لِلعلمِ، يُعطيهِ ويَبذلُهُ مِنْ غيرِ أَجرٍ أَو مُقابِلٍ، وتُحكَى في هذا عَنْهُ العَجائِبُ والنَّوادرُ الَّتِي بَهرَتِ العقولَ والأَلبابَ.

❋ ❋ ❋

كانَ «الفَراهيديُّ» مِنْ طائِفَةِ العُلماءِ الَّذِيْنَ يَرضونَ بِكفافِ العيشِ، ولا يَتطلَّعونَ إِلَى مَجدٍ أَو غنىً أَو سُلطانٍ، كانَ يَتَكسَّبُ مِنْ عَملِ يَدِهِ، وما زادَ عَنْ حاجَتِهِ مِنْ كَسبِهِ أَنفَقَهُ عَلى الفُقراءِ والمُحتاجينَ. ويُقَالُ: إِنَّهُ كانَ عندَهُ «بازٌ»[1] يَقنصُ بِهِ، ويَرتزقُ منهُ رغمَ ما كانَ يَتمتَّعُ بِهِ مِنْ مَنزلةٍ عاليَةٍ بينَ عُلماءِ عَصرِهِ، حَتَّى قالَ في حَقِّهِ أَحدُ تَلامذَتِهِ وهو «النَّضرُ بنُ

= عليها أن مخالفيهم من أهل القبيلة كفار وليسوا بمشركين وتجوز مناكحتهم ومعاملتهم، وأنه يجوز أن يبعث الله نبياً مِن غير دليل، ثم انشقّوا ثلاث فرق: حفصيّة ويزيديّة وحارثية.

(1) كتاب البيزرة لبازبار العزيز بالله الفاطمي، والباز: طائر يُصطاد بِه بعض الطيور والطرائد الغالية الثمن، والذي يستعمله يقال له: بازي.

شميلٍ»: أَقامَ الخليلُ بنُ أَحمدَ في خَصٍّ[1] بِالبَصرةِ، ولا يَقدرُ عَلى فِلسَينِ، وتلامذَتُهُ يَكسبونَ بِعلمِهِ الأموالَ.

ورغم هذِهِ الفاقَةِ الشَّديدةِ الَّتِي كانَ يُعاني مِنها «الفَراهيديُّ»، فَإِنَّهُ كانَ يَرفضُ العروضَ المُغريَةَ مِنَ الملوكِ والحُكَّامِ زُهداً في الدُّنيا، ووَرعاً وحياءً مِنَ اللهِ ﷻ، ورَضيَ أَنْ يَعيشَ في خرابةٍ في بُستانٍ تَركَهُ لَهُ أَبوهُ. ومِمَّا يَروي عنْهُ «أَبو عليٍّ القالي» في «الأَمالي» بِهذا الصَّددِ، أَنَّ والي الأهوازِ وخُرّاسانَ «سُليمانَ بنَ حبيبٍ المُهلبيَّ» أَرسلَ إِليهِ بِمئةِ أَلفِ درهمٍ يَطلبُهُ لِصُحبَتِهِ، فرفَضَ «الفَراهيديُّ» ورَدَّ عليهِ المئةَ أَلفِ درهمٍ، وأَرسلَ إِليهِ يَقولُ:

أَبلِغْ سُليمانَ: أَنّي عنهُ في سِعَةٍ ... وفي غِنىً غيرَ أَنّي لَستُ ذا مالِ
شُحِّي بِنَفسي أَنِّي لا أَرى أَحداً ... يَموتُ هَزلاً ولا يَبقَى عَلى حالِ
والرِّزقُ عَنْ قَدرٍ لا العجزُ يُنقِصُهُ ... ولا يزيدُكَ فيهِ حَولُ مُحتالِ
والفقرُ في النَّفسِ لا في المالِ تَعرفُهُ ... ومثلُ ذاكَ الغِنَى في النَّفسِ لا المالِ

وفي «نورِ القَبسِ» لِلحافظِ اليَغموريِّ: إِنَّهُ لَمَّا أَتاهُ الرَّسولُ أَدخَلَهُ دارَهُ، فَأَخذَ خبزاً يابساً فَبلَّهُ بِالماءِ، ثُمَّ قالَ لِلرَّسولِ: أَبلغْ سُليمانَ أَنَّا لا حاجَةَ لَنا فيهِ ما دُمنا نجدُ هذا.

ويَصفُهُ العلَّامَةُ «الأَبشيهيُّ» في كتابِهِ «المُستَطرفِ» فَيقولُ: كانَ الخليلُ بنُ أَحمدَ

---

(1) أقام في خص: أي: خَصاصة، وهي الحاجة الشّديدة.

النَّحويُّ مِنْ أَزهدِ النَّاسِ وأَعلاهُمْ نَفساً، وكانَ المُلوكُ يَقصدونَهُ ويَبذلونَ لَهُ الأَموالَ فَلا يَقبلُ مِنها شَيئاً. وكانَ يَحجُّ سَنةً، ويَغزو سَنةً حَتَّى ماتَ.

❋ ❋ ❋

لَمْ يَترِكِ «الفَراهيديُّ» عِلماً مِنْ عُلومِ اللُّغَةِ أَو الدِّينِ إِلَّا وَلجَ فيهِ وأَتقنَهُ حتَّى أصبحَ مَرجعاً أَميناً فيها، ومَصدراً غَنياً مِنْ مَصادرِ العلمِ، نَفذَ ذَكاؤُهُ في كُلِّ عِلمٍ تَعاطاهُ، فَأَينعَ عَقلُهُ المُبدعُ ما كانَتِ اللُّغةُ العربيَّةُ تَفتقرُ إِليهِ مِنْ عُلومِ الفَنِّ والجَمالِ، وما تَحتاجُ إِليهِ مِنْ قَواعدِ الكمالِ والبَلاغَةِ.

ومِمَّا يُروَى عَنهُ أَنَّهُ في إِحدَى حَجَّاتِهِ سَأَلَ ربَّهُ وهوَ في فَناءِ البيتِ الحرامِ أَنْ يَرزقَهُ عِلماً، فرجعَ إِلى البَصرةِ فَفتحَ عليهِ بِعلمِ العروضِ، وهوَ علمٌ لَمْ يَسبقْهُ إِليهِ أَحدٌ[1].

يَقولُ حمزة الأَصبهانيُّ في كتابِهِ «التَّنبيهِ عَلى حدوثِ التَّصحيفِ»: «وبَعدُ، فَإِنَّ دولةَ الإِسلامِ لَمْ تُخرِجْ أَبدعَ لِلعلومِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لَها أُصولٌ عندَ عُلماءِ العربِ مِنَ الخَليلِ، وليسَ عَلى ذَلِكَ بُرهانٌ أَوضَحَ مِنْ علمِ العَروضِ الَّذِي لا عَنْ حكيمٍ أَخذَهُ».

أَمَّا عَنْ سَببِ وَضعِهِ لهذا العلمِ، فيَروي الحافظُ اليَغموريُّ في «نورِ القَبسِ» عَنِ النّضرِ بنِ شميلٍ تلميذِ «الفَراهيديِّ» أنه قالَ: كانَ أَصحابُ الشِّعرِ يَمرُّونَ بِالخليلِ فَيتكلَّمونَ النَّحوَ، فقالَ الخليلُ: لا بُدَّ لَهُمْ مِنْ أَصلٍ، فَوضعَ العَروضَ. ويُتابعُ فَيقولُ عَنْ كيفيَّةِ وضعِ

(1) الوافي بالوفيات للصفديّ. وعلم العروض: هو علم القوافي أو قواعد الشعر وأوزانه، وهي البحور التّي وضعها وأسماها الفراهيدي كالبحر الطويل والبسيط والكامل والوافر والرمل... إلخ.

الخليلِ لهذا العلمِ: فَخلا في بَيتٍ ووَضعَ بينَ يَديهِ طِستاً، فَجعلَ يَقرعُهُ بِعودٍ ويَقولُ: فاعِلُنْ مُسْتَفْعِلُنْ فَعولُنْ. قالَ: فَسَمِعَهُ أَخوهُ ـ وفي روايةٍ ابنهُ ـ فَخرَجَ إِلى المسجدِ، فَقالَ: إِنَّ أَخي قَدْ أَصابَهُ الجُنونُ، فَأَدخلَهُمْ عَلى الخليلِ وهوَ يَضربُ الطِّستَ.

فقالوا: يا أَبا عبدِ الرَّحمنِ، ما لكَ؟ أَصابكَ شَيءٌ؟

قالَ: وما ذاكَ؟

قالوا: أَخوكَ يَزعمُ أَنَّكَ جُنِنتَ؟!

فَأَنشأَ يَقولُ:

لو كُنتَ تَعلَمُ ما أَقولُ عَذَرتَني ... أَو كنتُ أَجهلُ ما تقولُ عَذَلتُكا

لَكِنْ جَهلتَ مقالَتي فَعذَلتَني ... وعَلمتُ أَنَّكَ جاهلٌ فَعَذَرتُكا

❁ ❁ ❁

كانَ «الفَراهيديُّ» فَطناً ذَكيّاً، وإِمامَ عَصرهِ في عُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ. وإِذا كانَ واضعَ علمِ العروضِ، فَهوَ أيضاً أَوَّلُ مَنْ وَضَعَ مُعجماً لُغويّاً مَنهجيّاً يَشرحُ فيهِ معاني الأَلفاظِ والكلماتِ الَّتِي دَرَجَتْ عَلى لِسانِ العربِ حينَها، وأَسماهُ كتابَ «العين»، كما كانَ لَهُ في الشِّعرِ والنَّحوِ والتَّفسيرِ صولاتٌ وجولاتٌ أَثرَى خِلالَها لُغةَ العربِ بِالبيِّناتِ مِنَ الشُّروحِ والآراءِ، الَّتِي كانَتْ ذُخراً لِلعُلماءِ الَّذِيْنَ أَتَوا بَعدَهُ ولا سِيَّما لِتلميذِهِ سيبويه مؤسِّسِ علمِ النَّحوِ وواضعِ أَوَّل كتابٍ في النَّحوِ الَّذِي اعتبرَهُ البَعضُ «قُرآنَ النَّحوِ» فَما هوَ إِلَّا جَمعٌ لآراءِ «الفَراهيديِّ»، فَكثيراً ما رَدَّدَ سيبويه في كتابِهِ: «حَدَّثني الخليلُ، أَو يَرَى الخليلُ».

ومِنْ ثُمَّ تَعدَّدَتْ إنجازاتُ «الفَراهيديِّ» وإبداعاتُهُ في مَجالِ اللُّغةِ العربيَّةِ، فَقَدْ أَحصَى لَهُ المُؤَرِّخُونَ مُؤلَّفاتِهِ، مِنها ما وَصلَ إلينا، ومِنها ما تَلاشَى في آثارِ ومُصنَّفاتِ مَنْ أَتَى بَعدَهُ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ العربيَّةِ، فَذكرَ لَهُ المُؤَرِّخُونَ الآثارَ التَّاليَةَ:

ـ كتابُ العينِ: وهوَ أَهمُّ مُؤلَّفاتِهِ عَلى الإِطلاقِ، وأَقدمُ كتابٍ في اللُّغةِ العربيَّةِ، وَصلَ إلينا مِنْ ذَلكَ الزَّمنِ، وهوَ مُعجمٌ رَتَّبَ فيهِ أَلفاظَ العربيَّةِ تَرتيباً أَبجدياً ومُعجميّاً، واقتَفَى أَثرَهُ فيهِ المُعجميونَ الَّذِيْنَ أَتَوا بَعدهُ. ويُقَالُ: إنَّ الفَراهيديَّ قَد أَلَّفَهُ لِوالي خُراسانَ اللَّيثِ بنِ رافعِ بنِ نَصرِ بنِ سَيَّارَ، فَوقَعَ الكتابُ مِنهُ موقعاً حَسناً لأَنَّهُ كتابٌ لَمْ تَعمَلْ مِثلَهُ العربُ قبلَ ذَلِكَ.

ـ وكتابُ العَروضِ: بَسطَ فيهِ علمَ العروضِ.

ـ وكتب أُخَر، ككتابِ العوامل، وكتابِ النّقطِ والشَّكلِ، وكتابِ النَّغمِ، وكتابِ التُّفاحةِ في النَّحوِ، وكتابِ الإِيقاعِ، وكتابِ الشَّواهدِ، وكتابِ تَصريفِ الفعلِ، وكتابِ جُملَةِ آلاتِ العربِ.

وذَكرَ المُؤَرِّخُونَ عَنْ حياةِ «الفراهيديِّ» أَنَّهُ اجتمَعَ بِالأَديبِ والفيلسوفِ «عبدِ اللهِ بنِ المُقَفَّعِ» وتَباحثا معاً طَويلاً في مَسائِلِ اللُّغةِ والأَدبِ، فَسُئلَ ابن المُقَفَّعِ: كيفَ رأَيتَ الخليلَ؟

فقالَ: رأيتُ رَجُلاً عَقلُهُ أَكثرُ مِنْ عِلمِهِ!

وسُئِلَ الخَليلُ: كيفَ رأَيتَ ابن المُقَفَّعِ؟

فقالَ: رأيتُ رَجُلاً عِلمُهُ أَكثرُ مِنْ عَقلِهِ!

ولِهذا قالَ ابن سَلامٍ: لَمْ يَكُنْ في العربِ أَذكَى مِنَ الخَليلِ بَعدَ الصَّحابةِ، ولَمْ يَكُنْ في العجمِ أَذكَى مِنِ ابن المُقفَّعِ[1].

ومِنْ ثمَّ، اختلَفَ المُؤَرِّخُونَ عَلى تَحديدِ عامِ وَفاةِ الفَراهيديِّ، ولَكنَّ الأَرجحَ أَنَّها سَنة (170) هجريَّةً. وقَدْ رَوَى المُؤَرِّخُونَ في سَببِ موتِهِ: أَنَّهُ دخلَ يَوماً المَسجدَ وهوَ مَشغولُ الفكرِ، فَشرَدَ عَنْ أنْ يُبصرَ ما بينَ يَديهِ فَصدَمَتهُ ساريَةٌ فَوقعَ فَماتَ، ويَذكرُ ابنُ خَلكانَ في وَفيَّاتِهِ أَنَّ الفَراهيديَّ كانَ يُريدُ أَنْ يَضعَ حِساباً تَمضي بِهِ الجاريَةُ إِلى البائعِ فَلا يُمكنُهُ ظُلمُها، وأَنَّهُ دخلَ المسجدَ وهوَ يجهدُ في إِعمالِ فِكرِهِ بِهذا الحسابِ، فَصدَمَتْهُ الساريَةُ فَوقعَ على ظَهرِهِ فَماتَ، ويَرى آخرونَ أَنَّهُ كانَ يُقَطِّعُ بيتاً مِنَ الشِّعرِ.

و«الفَراهيديُّ» شاعرٌ مُتَمَكِّنٌ رَوتْ لَهُ كُتبُ التاريخِ والأَدبِ الكثيرَ مِنَ الأَشعارِ الَّتِي يَدورُ موضوعُها حَولَ التَّمسُّكِ بِالفَضيلةِ والأَخلاقِ الحسنةِ والاعتبارِ والزُّهدِ في الدُّنيا، كما وَردَتْ لَهُ الكثيرُ مِنَ الأَقوالِ المأثورةِ البليغةِ الَّتِي ذَهبَتْ مذهبَ الأمثالِ، وتَضعُهُ بينَ الحُكماءِ الَّذِيْنَ خَبِروا الحياةَ وعَركوها جيِّداً. ومِنْ أَقوالِهِ الَّتِي تُنسبُ إِليهِ:

«الرِّجالُ أَربَعةٌ:

رَجلٌ يَدري ولا يَدري أَنَّهُ يَدري فَذاكَ غافلٌ فَنبِّهوهُ.

ورَجلٌ لا يَدري ويَدري أَنَّهُ لا يَدري فَذاكَ جاهلٌ فَعلِّموهُ.

---

(1) كتاب نور القبس للحافظ اليَغموريّ.

ورَجلٌ يَدري ويَدري أَنَّهُ يَدري فَذاكَ عاقلٌ فَاتَّبعوهُ.
ورَجلٌ لا يَدري أَنَّهُ لا يَدري فَذاكَ مائقٌ[1] فَاحذروهُ»[2].

(1) مائق: أحمق.
(2) كتاب الجليس الصالح الكافي للمعافى بن زكريا.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ بِماذا أَمضَى الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ حياتَهُ؟

2 ـ ما أَهميَّةُ المُعجمِ الَّذِي وَضعَهُ الخليلُ بنُ أحمدَ الفَراهيديُّ؟

3 ـ ماذا قالَ سَفيانُ بنُ عُيينَةَ عَنِ الفراهيديِّ؟

4 ـ إِلى مَنْ يَرجعُ نسبُ الفراهيديِّ، وأَينَ ولدَ، وأَينَ نَشأ وتعلَّمَ؟

5 ـ ماذا أخرج الفَراهيديُّ لِرَسولِ سليمان المُهلبي عندما أدخلهُ بيتَه، وماذا قالَ لهُ؟

6 ـ ما سَببُ وَضعِ الفَراهيدي لِعلمِ العروضِ؟

7 ـ ماذا قالَ ابنُ المُقفَّعِ عَنِ الفَراهيديِّ؟

8 ـ ما هيَ أَهمُّ مُؤلَّفاتِ الفَراهيديِّ؟

الأصمعي
أسدُ الشِّعرِ
(١٢٢ ـ ٢١٣هـ)

الأَصمعيُّ، عَبدُ المَلكِ بنُ قَريبٍ، المُلَّقبُ بِأَبي سَعيدٍ، أَسدُ الشِّعرِ، وأَحفظُ العربِ لِلشِّعرِ العربيِّ ورِوايَتِهِ وتَفسيرِهِ، وأَجودُهُمْ إِتْقاناً لِلنَّوادرِ والأَخبارِ والحِكَمِ والعِظاتِ، وأَعلاهُمْ رتبةً في مَعرفَةِ وجوهِ اللُّغةِ ومَعاني أَلفاظِها وكلماتِها وأَسمائِها وأَفعالِها وتَراكيبِها، واحِدٌ مِنْ أَعلامِ أُمَّتِنا العربيَّةِ والإِسلاميَّةِ الأَفذاذِ والعُظماءِ قِياساً بِما قَدَّمَهُ مِنْ جُهدٍ وإِبداعٍ في سبيلِ رُقيِّ لُغَتِنا العربيَّةِ الجَميلةِ، فَكانَ مِنَ الخالدينَ في التَّاريخِ العربيِّ المَجيدِ، حَتَّى إِنَّهُ يُمكِنُنا الجَزمُ جَزماً قاطعاً، أَنَّ اسْمَ الأَصمعيِّ أَكثرُ الأَسماءِ تكراراً في كُتبِ اللُّغةِ والأَدبِ والنَّوادرِ والأَخبارِ، كما أَنَّ آراءَهُ ورِواياتِهِ هي العمدةُ في معاجمِ اللُّغةِ والأَدبِ والتَّاريخِ، فَإِذا قالَ الأَصمعيُّ فَقولُهُ الحَقُّ الَّذِي يُتَّبعُ ويُؤخَذُ بِهِ قَبلَ غيرِهِ مِنَ العُلماءِ والرُّواةِ.

كانَ الأَصمعيُّ عالِماً ثَبتاً حُجَّةً ثِقةً، ومُحدِّثاً صَدوقاً ومُقدَّماً بِإِجماعِ عُلماءِ الأُمَّةِ ـ سَواءٌ الَّذِيْنَ عاصروهُ أَو أَتوا بَعدَهُ ـ فَلَقَدْ مَدحَهُ كِبارُ عُلماءِ الأُمَّةِ وأَعيانُها في عَصرِهِ كَالإِمامِ

الشَّافعيِّ، والإمامِ أحمدَ بنِ حَنبلٍ، والإمامِ التّرمذيِّ، وأَبي داؤدَ، وسَفيانَ بنِ عُيَينَةَ، وغَيرِهِمْ كثير مِنَ العُلماءِ. إضافَةً إِلى ثناءِ الخُلفاءِ والأُمراءِ الَّذِيْنَ عاصروهُ وعاصرَهُمْ عليهِ، ومَدحِهِمْ لَهُ، وخاصَّةً الخَليفَةِ هارونَ الرَّشيدِ الَّذِي لَمْ يَكُنْ لِيَروقَ لَهُ مَجلسُ الأُنسِ والعلمِ والأَدَبِ إِلَّا إِذا كانَ الأَصمعيُّ حاضراً فيهِ، فَقَدْ كانَ الأَصمعيُّ بِالنِّسبَةِ إِلى الرَّشيدِ كبيرَ نُدمائِهِ، وعَظيمَ جُلسائِهِ، وأَقربَ مُستشاريهِ الأُدباءِ إِلَى قَلبِهِ وعَقلِهِ. وما مَدحَ الرَّشيدُ أَحداً مِنْ رَعيَّتِهِ كما مَدحَ الأَصمَعيَّ، وما استراحَ قَلبُهُ، واطمأَنَّ خَلَدُهُ، وراقَ فكرُهُ وخاطرُهُ، إِلَّا لِلأَصمعيِّ عَلَّامةِ زَمانِهِ وعَصرِهِ. وما سَأَلَ الخليفَةُ الرَّشيدُ الأَصمَعيَّ عَنْ شَيءٍ أَو أَمرٍ في يَومٍ مِنَ الأَيَّامِ إِلَّا وفَسَّرَهُ لَهُ بِما يَحفظُهُ مِنْ كلامِ العربِ أَو أَشعارِهِمْ، فكانَ الرَّشيدُ كثيراً ما يَقولُ لَهُ:

للهِ درُّكَ! فَما رَأَيتُ مِثلَكَ، خُلقتَ لِهذا الشأنِ وَحدَكَ![1]

أَو يَقولُ لَهُ:

للهِ درُّكَ يا أَصمَعيُّ! فَإِنِّي أَجدُ عِندَكَ ما ضَلَّ عَنِ العُلماءِ[2]!

فَمَنْ هوَ الأَصمعيُّ؟ وأَينَ ولدَ وعاشَ؟ ومِمَّنْ تلقَّى عِلمَهُ؟ وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟ هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ هَذِهِ الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

(1) كتاب نور القبس لليَغموريّ.

(2) المصدر نفسه.

يَنحدرُ الأَصمعيُّ مِنْ أَصلٍ عَربيٍّ أَصيلٍ، فَهوَ عَربيٌّ باهليٌّ قَيسيٌّ مُضريٌّ يَنتَهي نَسبُهُ إِلى قيسِ عيلانَ بنِ مُضَرٍ بنِ نزارٍ، واسمُهُ الحَقيقيُّ هوَ: عَبدُ الملكِ بنُ قَريبِ بنِ عَبدِ المَلكِ بنِ عَليِّ بنِ أَصمَعَ، ويُكَنَّى بِـ «أَبي سَعيدٍ»، ويُلقَّبُ بِـ «الأَصمَعيِّ» نسبَةً إِلى جَدِّهِ أَصمَعَ، كما أَنَّ الاسمَ الحَقيقيَّ لأَبيهِ هوَ «عاصمٌ»، ويُكَنَّى بِـ «أَبي بَكرٍ» وسُمِّيَ بِقريبٍ مِنْ قَبيلِ المَدحِ والمُظارفَةِ.

ويَتَّفقُ المُؤَرِّخُونَ بِإِجماعٍ، على أَنَّ «الأَصمَعيَّ» ولِدَ بِالبَصرةِ سنةَ (122) هجريَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها مُكبّاً عَلى العلمِ والمَعرفَةِ وحِفظِ أَشعارِ العربِ؛ إِذْ كانَ يَتمتَّعُ منذُ طفولَتِهِ بِقوَّةِ الذَّاكرةِ، وبِقدرةٍ فائِقَةٍ عَلى الحفظِ، ويَميلُ نَحوَ التَّعلُّمِ ومُجالسَةِ العُلماءِ، وهوَ مَعدودٌ مِنْ عُلماءِ العربِ الَّذِيْنَ اشتُهروا وهُمْ صغارُ السِّنِّ بِسُرعةِ الحفظِ والبَديهةِ، وبِمرونَةِ العقلِ، وسِعةِ الخيالِ.

بَدأَ «الأَصمعيُّ» أَخذَ العلمِ والسَّماعِ عَلى العُلماءِ منذُ سِنِّ العاشرةِ، ثُمَّ لَمَّا نَما عقلُهُ، وتَفَتَّحَتْ مَداركُهُ سَلكَ سبيلَ طَلبَةِ العِلمِ، فَلازمَ عِدَّةَ عُلماءَ مِنْ عُلماءِ البصرةِ يَنهلُ مِنْ عُلومِهِمْ ومَعارِفِهِمْ بِشغفٍ واهتمامٍ شَديدَينِ، فالتزمَ أَوَّلاً بِحلقَةِ شيخِ البَصرةِ وعالِمِها المُقدَّمِ بِعلمِ الفقهِ «عَبدِ اللهِ بنِ عونٍ»[1]، ثُمَّ التزمَ بِمجلسِ «شُعبَةَ بنِ الحَجَّاجِ»[2] وبِمجلسِ

(1) ذكره اليافعي في كتابه مرآة الجنان وعبرة اليقظان وبأَنَّهُ توفي سنة 151هـ، وعدَّه من علماء البصرة.

(2) شعبة بن الحجاج: هو أبو بسطام شعبة بن الحجاج وهو من الموالي، ولد في واسط وتوفي بالبصرة سنة 160هـ.

الرَّاويَةِ والمُحدِّثِ «حمَّادِ بنِ سَلمةَ»[1]، وسَمعَ مِنْ «حمَّادِ بنِ زَيدٍ»، كما سمعَ مِنَ «الخليلِ بنِ أحمدَ الفَراهيديِّ»، ويُقالُ: إنَّ الأَصمَعيَّ حاوَلَ أَخذَ عِلمِ العروضِ عَنهُ، غيرَ أَنَّهُ لَمْ يُكمِلْ ذَلِكَ، ولَمْ يَستَسِغْهُ عَقلُهُ، قالَ ابنُ الأَعرابيِّ: شَهِدْتُ الأَصمعيَّ وقَدْ أَنشدَ نَحواً مِنْ مئتي بيتٍ، ما فيها بيتٌ عَرفناهُ.

وكانَ الأَصمعيُّ صَدوقاً في الحديثِ، أَخذَ عَنْ عَبدِ اللهِ بنِ عونٍ وشُعبَةَ بنِ الحَجَّاجِ وحمَّادِ بنِ سَلمةَ وحمَّادِ بنِ زَيدٍ الخليلِ بنِ أحمدَ. ويُحكَى أَنَّهُ أَرادَ أَنْ يَقرأَ عليهِ العروضَ، وشَرعَ في تَعلُّمِهِ فَتعذَّرَ ذَلكَ عليهِ، فَيَئِسَ الخليلُ مِنهُ، فَسأَلَهُ عَنْ مَعصوبِ الوافرِ، فقالَ لَهُ: يا أَبا سَعيدٍ، كيفَ تُقَطِّعُ قَولَ الشَّاعرِ:

إِذا لَـمْ تَـسـتَـطِـعْ شـيـئـاً فَـدَعْـهُ وجـاوِزْهُ إِلـى مـا تَـسـتـطـيـعُ

فَعلِمَ «الأَصمعيُّ» أَنَّ الخليلَ قَدْ تَأَذَّى بِبُعدِهِ عَنْ علمِ العروضِ، فَلَمْ يُعاودْهُ فيهِ.

كما أَخذَ العلمَ عَنِ الأَصمعيِّ كَوكبَةٌ مِنَ العلماءِ والأَعلامِ المَشهورينَ، وأَبرَزُهُمُ: ابنُ أَخيهِ «عبدُ الرَّحمنِ بنُ عبدِ اللهِ»، و«أَبو عُبيدٍ القاسمُ بنُ سلامٍ» وعَلَّامةُ عَصرِهِ «أَبو حاتمٍ السجستانيُّ»، و«أَبو الفَضلِ الرّياشيُّ»، و«أَحمدُ بنُ مُحمَّدٍ اليَزيديُّ».

❋ ❋ ❋

لَقَدْ ذاعَ صيتُ «الأَصمعيِّ» في البصرةِ وما حولَها، وانتشرَ خَبرُهُ في البوادي والقُرَى

(1) حماد بن سلمة: هو أبو صخر بن دينار مولى بني تميم، كان عالماً فاضلاً عالماً بالقرآن والحديث وشاعراً مُجيداً، توفي سنة 167هـ.

عَلَى أَنَّهُ عالمٌ مُدَقِّقٌ حَصيفٌ حافظٌ لِشعرِ العربِ، ومُحدِّثٌ صَدوقٌ لا يَميلُ عَنِ الحَقِّ، ولا يَحيدُ عَنِ الصَّوابِ فيما يُفسِّرهُ أَو يَشرَحُهُ مِنَ الشِّعرِ أَو مِنْ كلامِ العربِ، حَتَّى إِنَّهُ فاقَ في ذَلِكَ مُعاصرَهُ وأُستاذَهُ الخليلَ بنَ أَحمدَ، حَتَّى قيلَ فيهِ: «إِنَّهُ كانَ يَحفظُ ثلثَ اللُّغةِ، وكانَ الخليلُ بنُ أَحمدَ يَحفظُ نصفَها»[1].

وسُرعانَ ما وَصلَ صيتُ «الأَصمعيِّ» إِلى قُصورِ الولاةِ والخُلفاءِ، فَطرقَ أَدبُهُ وعلمُهُ مَجالِسَهُمْ بِقوَّةِ حضورٍ لا مَثيلَ لَها. وكانَ أَوَّلُ عَهدِهِ بِالخُلفاءِ، أَنَّهُ حَضر مجلسَ الخليفَةِ «أَبي جعفرٍ المَنصورِ»، ونازعَهُ أَمرَ تَعجيزِ الشُّعراءِ والأُدباءِ، وغَلبَهُ عَلى أَمرِهِ فيما كانَ يَتحدَّى بِهِ أَهلَ العلمِ والحفظِ الَّذِيْنَ يَغشونَ مجلسَهُ.

قيلَ: إِنَّ المَنصورَ كانَ يَحفظُ ما يَسمعُهُ مِنْ أَوَّلِ مَرَّةٍ، ولهُ مملوكٌ يَحفظُ مِنْ مَرَّتينِ، ولَهُ جاريَةٌ تَحفظُ مِنْ ثَلاثِ مراتٍ، فكانَ إِذا جاءَهُ شاعرٌ بِقصيدةٍ قالَ لَهُ:

إِنْ كانَ أَحدٌ يَحفظُها قَبلَكَ لا نُعطيكَ جائزةً، وإِنْ لَمْ يَكُنْ أَحدٌ يَحفظُها قَبلَكَ نُعطيكَ زِنةَ ما هيَ مَكتوبةٌ فيهِ.

فَيقرأُ الشَّاعرُ القَصيدةَ فَيحفظُها الخليفةُ مِنْ أَوَّلِ مرَّةٍ ولو كانَت ألفَ بيتٍ، ويَقولُ لِلشَّاعرِ:

اسمَعْها مِنِّي، فَيُنشدُها بِكمالِها، ثُمَّ يَقولُ لَهُ:

---

(1) كتاب أَخبار النَّحويينَ لِلمقريّ.

وهذا المَملوكُ يَحفظُها، ويَكونُ المَملوكُ قَدْ سَمعَها مَرَّتين، مرّةً مِنَ الشَّاعرِ ومرَّةً مِنَ الخليفةِ فَيقرؤُها، ثُمَّ يَقولُ الخليفَةُ:

وهذِهِ الجاريَةُ الَّتِي خَلفَ السِّتارِ تَحفَظُها أَيضاً، وقَدْ سَمعَتْها الجاريَةُ ثَلاثَ مرَّاتٍ، فَتقرؤُها بِحروفِها، فَيذهبُ الشَّاعرُ بِغيرِ شَيءٍ.

قالَ الرَّاوي: وكانَ الأَصمَعيُّ مِنْ جُلسائِهِ ونُدمائِهِ، فَنظمَ أَبياتاً صَعبةً وكَتبَها عَلى قِطعةِ عمودٍ مِنْ رُخامٍ ولَفَّها في عَباءَةٍ وجعلَها علَى ظَهرِ بَعيرٍ، وجاءَهُ بِصفَةِ أَعرابيٍّ غَريبٍ، وضَربَ لَهُ لِثاماً لَمْ يُبِنْ مِنهُ سِوَى عَينَيهِ، وقالَ لِلمَنصورِ:

إِنِّي امتَدحْتُ أَميرَ المُؤمنينَ بِقصيدةٍ.

فقالَ لَهُ المَنصورُ: يا أَخا العربِ، إِنْ كانَتْ لِغيرِكَ لا نُعطيكَ عليها جائزةً، وإِلَّا نُعطيكَ زِنةَ ما هيَ مكتوبَةٌ عليهِ.

فَأَنشدَ الأَصمعيُّ قَصيدةً يَصعبُ عَلى غَيرِهِ حِفظُها.

قالَ الرَّاوي: فَلَمْ يَحفَظْها الخليفةُ لِصعوبَتِها، ونَظرَ إِلى المَملوكِ والجاريَةِ فَلَمْ يَحفَظْها أَحدٌ مِنهُما، فقالَ:

يا أَخا العربِ، هاتِ ما هيَ مكتوبَةٌ فيهِ نُعطِكَ زِنَتَهُ.

فقالَ: يا مولايَ، إِنِّي لَمْ أَجِدْ ورقاً أَكتُبُ فيهِ، وكانَ عندي قطعةَ عَمودِ رُخامٍ مِنْ عهدِ أَبي، وهيَ مُلقاةٌ ليسَ لي بِها حاجَةٌ، فَنَقَشتُها فيهِ، فلَمْ يَسَعِ الخَليفَةُ إِلا أَنْ أَعطاهُ وزنَها ذَهباً. فَلَمَّا ذَهبَ قالَ الخليفَةُ: يغلبُ عَلى ظَنِّي أَنَّ هذا الأَصمَعيُّ، فَأَحضرَهُ وكَشفَ عَنْ

وَجهِهِ فَإِذا هوَ الأَصمَعيُّ، فَتعجَّبَ مِنهُ ومِنْ صَنيعِهِ، وأَجازَهُ عَلى عادَتِهِ[1].

❋ ❋ ❋

لَمْ يَكُنِ «الأَصمَعيُّ» لِيَقعُدَ يَوماً بَعدَ نبوغِهِ العلميِّ والمَعرفيِّ بِاللُّغةِ والشِّعرِ يوماً عَنْ طَلبِ العلمِ، وإِنَّما كانَ يَطوفُ بِالبَوادي والحَواضرِ، ويَقتبسُ مِنْ علومِ ومعارفِ أَبنائِها، ويَحفظُ شعرَها وأَلفاظَها، ويَتَلَقَّى أَخبارَها، ويُتحفُ بِها الخُلفاءَ فَيُكافَأُ عَليها بِالعَطايا الوافرةِ، وكانَ الخَليفَةُ هارونُ الرَّشيدُ يُسَميهِ: بِـ «شَيطانِ الشِّعرِ».

قالَ أَبو العبَّاسِ المُبرِّدُ: كانَ الأَصمعيُّ أَسدَ الشِّعرِ والغريبِ والمَعاني[2].

حَقّاً كانَ «الأَصمعيُّ» بَحراً في اللُّغةِ وكثرةِ رِوايَةِ الشِّعرِ والأَخبارِ والنَّوادرِ، لا مَثيلَ ولا شَبيهَ لَهُ في ذَلِكَ، ومِمَّا يُروَى عَنهُ في هذا الصَّددِ أَنَّهُ كانَ حاضراً في مَجلسِ الرَّشيدِ يوماً ومعهُ كبيرُ نحويِّ عَصرِهِ «أَبو حمزةَ الكِسائيُّ»، فَقالَ لَهُ «الأَصمعيُّ» أَمامَ الرَّشيدِ: ما مَعنَى قَولِ الشَّاعرِ:

قَتَلوا ابنَ عَفَّانَ الخَليفَةَ مُحرِماً ودَعا فَلَمْ أَرَ مِثلَهُ مَقتولاً؟

قالَ الكِسائيُّ: كانَ مُحرِماً بِالحجِّ، فقالَ الأَصمعيُّ: وقَولِهِ:

قَتلوا كِسرَى بِليلٍ مُحرِماً فَتَولَّى لَمْ يُمتَّعْ بِكَفَنِ

فَهَلْ كانَ مُحرِماً بِالحَجِّ؟

---

(1) كتاب إِعلام النّاس بما وقع للبرامكة للإِتليدي بتصرف.

(2) أَخبار النّحويين.

فقالَ الرَّشيدُ لِلكِسائيِّ: يا عَليُّ، إذا جاءَ الشِّعرُ فَإيَّاكَ والأَصمَعيَّ.

وبَلغَ مِنْ إعجابِ الرَّشيدِ بِعلمِ الأَصمعيِّ، أَنّهُ عَندما يُصيبُهُ الأَرقُ فَلا يَستطيعُ النَّومَ يُنادي عَلَى حُجَّابِهِ، فيَقولُ لَهُمْ: إليَّ بِالأَصمعيِّ، فَيحضرُ الأَصمعيُّ ويُحدِّثُ الخليفَةَ بِحديثٍ يُذهِبُ مِنْ عَينيهِ الأَرقَ، ومِنْ نَفسِهِ الضَّجرَ.

إنَّ الأَصمَعيَّ أَوَّلُ مَنْ تَجرَّأَ وتَحدَّثَ عَنْ مناقبِ البَرامكةِ أَمامَ الرَّشيدِ بَعدَ أَنْ فَتكَ بِهِمْ وقَتلَ كُبراءَهُمْ، وأَبكاهُ عَلى وَزيرِهِ الفَضلِ بنِ يَحيى بُكاءً مريراً أَظهرَ الرَّشيدُ خِلالَهُ نَدمَهُ عَلى قَتلِهِ.

وهذا يَدلُّنا بِوضوحٍ، عَلى أَنَّ الأَصمعيَّ لَمْ يَكُنْ مِنْ زُمرةِ العُلماءِ الَّذِيْنَ يَهابونَ المُلوكَ في قَولِ الحَقِّ، أَو يَتضعضَعونَ أَمامَهُمْ، وإنَّما كانَ صاحبَ شَكيمةٍ قَويَّةٍ، وجَسارةٍ نادرةٍ لا يَهابُ فيما يُرضي اللهَ أَحداً كائناً مَنْ كانَ.

وكانَ حَريصاً كُلَّ الحرصِ عَلى إحياءِ سُنَّةِ الرّسولِ ﷺ في أَعمالِهِ وأَقوالِهِ وسُلوكِهِ. قالَ إبراهيمُ الحربيُّ: كانَ أَهلُ البَصرةِ أَهلَ العربيَّةِ، مِنهُمْ أَصحابُ الأَهواءِ إلَّا أَربعةٌ مِنهُمْ كانوا أَصحابَ سُنَّةٍ: أَبو عمرو بنُ العلاءِ، والخليلُ بنُ أَحمدَ، ويونُسُ بنُ حبيبٍ، والأَصمعيُّ.

بَلْ عَكسَ لَنا المُؤَرِّخُونَ في آثارِهِمْ، أَنَّ العلاقَةَ بينَ الخليفَةِ الرَّشيدِ والأَصمعيِّ، كانَتْ قائمةً عَلى أَساسِ تَبادلِ الاحترامِ، والمُناصحةِ بِالخيرِ والمعروفِ، معَ مُراعاةِ مَكانَةِ ومَنزلَةِ كُلٍّ مِنهُما لِلآخرِ.

فَقَدْ حَكَى أَبو العبَّاسِ المُبرّدُ، قالَ: دخلَ الأَصمعيُّ عَلى الرَّشيدِ بَعدَ غيبَةٍ كانَتْ مِنهُ، فقالَ لَهُ: يا أَصمَعيُّ، كيفَ أَنتَ بَعدنا؟

فقالَ: ما لاقَتْني أَرضٌ بَعدكَ، فتبسَّمَ الرّشيدُ، فَلمَّا خرجَ النَّاسُ قالَ:

يا أَصمعيُّ، ما مَعنَى قَولِكَ: ما لاقَتني أَرضٌ؟

فقالَ: ما استقرَّتْ بي أَرضٌ.

فقالَ: هذا حسنٌ، ولَكِنْ لا يَنبَغي أَنْ تُكلِّمَني بينَ النَّاسِ إِلَّا بِما أَفهَمُهُ. فإِذا خَلَوتُ فَعلِّمني، فَإِنَّهُ يُقبَحُ بِالسُّلطانِ أَلَّا يَكونَ عالماً؛ لأَنَّهُ لا يَخلو إِمَّا أَنْ أَسكُتَ أَو أُجيبَ، فَإِذا سَكَتُّ فَيعلمُ النَّاسُ أَنِّي لا أَعلمُ إِذا لَمْ أُجِبْ، وإِذا أَجبتُ بِغيرِ الجوابِ فَيُعلَمُ مِنْ جوابي أَنِّي لَمْ أَفهَمْ ما قُلتَ.

قالَ الأَصمعيُّ: فَعلَّمَني أَكثرَ مِمَّا عَلَّمتُهُ[1].

ونُلاحِظُ أَنَّ ما عَرضَهُ الرَّشيدُ عَلى الأَصمعيِّ يَتَّفقُ معَ ما ذَهبَ إِليهِ الأَصمعيُّ في قولِهِ: «إِذا أَردتَ أَنْ تَعرفَ عقلَ الرَّجلِ في مجلسٍ واحدٍ، فَحدِّثْهُ بِحديثٍ لا أَصلَ لَهُ، فَإِنْ رأَيتَهُ أَصغَى إِليهِ وقَبِلَهُ فَاعلَمْ أَنَّهُ أَحمقُ، وإِنْ أَنكرَهُ فَهوَ عاقلٌ»[2].

❁ ❁ ❁

(1) كتاب أَخبار النّحويين للمقرئ.

(2) كتاب أخبار الحمقى والمغفلين لابن الجوزي.

كانَ الأَصمعيُّ غزيرَ الإنتاجِ، وَضعَ الكثيرَ مِنَ المُصنَّفاتِ، وقَدْ أَحصَى لَهُ المُؤَرِّخُونَ ما يُقاربُ الخمسينَ مُصنَّفاً ما بينَ كُتبٍ ورَسائِلَ، ونذكرُ أَهمَّها هُنا:

1 ـ كتابُ النَّوادرِ: وقامَ بِوضعِهِ بِناءً على رغبَةِ الوزيرِ الفضلِ بنِ يَحيى البُرمكيِّ.

2 ـ كتابُ الأَصمعياتِ: جمعَ فيهِ روائعَ الشِّعرِ العربيِّ لِشعراءِ الجاهليَّةِ وصدرِ الإِسلامِ، ويَضمُّ (72) قصيدةً لـ (61) شاعراً.

3 ـ كتابُ الخيل: ويبحثُ فيهِ في أَسماءِ خيلِ العربِ وصفاتِها.

4 ـ كتابُ الاشتقاقِ: ويبحثُ فيهِ في أُصولِ اللُّغةِ، واشتقاقاتِ ألفاظِ العربيَّةِ.

وكتبٌ أخرى منها: كتابُ مَعاني الشِّعرِ، وكتابُ نوادرِ الإِعرابِ، وكتابُ ما اتَّفقَ لفظُهُ واختلفَ معناهُ، وكتابُ ما تكلَّمَ بِهِ العربُ فكثرَ في أَفواهِ النَّاسِ، وكتابُ مياهِ العربِ.

هذا، ولا يَخلو كتابٌ في أُصولِ اللُّغةِ العربيَّةِ مِنْ إِيرادِ ما يَراهُ الأَصمعيُّ أَو ما حَقَّقَهُ وأَيَّدهُ، فَكتابُ «أَدبِ الكاتبِ» لابن قُتيبَةَ أَكثرُهُ عَنِ الأَصمعيِّ، وكَذلِكَ كتابُ «أدبِ الكاتبِ» لِلصوليِّ، وكتابُ «إِصلاحِ المنطقِ» لابن السّكيتِ، وكتابُ «الأَزمنةِ والأَمكنةِ» لِلمرزوقيِّ، وكتابُ «الأَذكياءِ»، وكتابُ «الأَمالي» لأَبي عليٍّ القالي، كما أَنَّ عبارَةَ (قالَ الأَصمعيُّ) مِنْ أَكثرِ العباراتِ تكراراً في كتابِ الأَغاني لِلأَصفهانيِّ.

توفي الأَصمعيُّ بِالبصرةِ سنةَ (213) هجريَّةً، ونَعاهُ خَلقٌ كثيرٌ مِنْ عُلماءِ وأَعيانِ عصرِهِ، وبِشكلٍ خاصٍّ، شاعرُ الزُّهدِ «أَبو العتاهيَةِ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ مَنْ هُمُ العُلماءُ الَّذِيْنَ مَدَحوا الأَصمعيَّ؟

2 ـ ماذا كانَ الأَصمعيُّ بِالنِّسبَةِ إِلى الخليفةِ هارون الرَّشيدِ؟

3 ـ ما اسمُ الأَصمعيِّ الحقيقيُّ، وإِلى مَنْ يَنتهي نَسبُهُ، ولماذا سُمِّي بِالأصمعيِّ؟

4 ـ متَى بدأَ الأَصمعيُّ أخذَ العلمِ، ومَنْ هُمْ أَشهرُ العلماء الذين أخذَ عنهُمْ؟

5 ـ ما هيَ أهمُّ الصِّفاتِ الَّتِي على أساسها انتشرَ خبرُ الأَصمعيِّ في البوادي والقُرَى؟

6 ـ ماذا كانَ الخَليفَةُ هارونُ الرَّشيدُ يُسمي الأَصمعيَّ، وكذَلكَ المُبرِّد؟

7 ـ علَى ماذا كانَ يَحرصُ الأَصمعيُّ؟

8 ـ اذكُرْ ثلاثَةً مِنْ مؤلَّفاتِ الأَصمعيِّ.

ابن السّكيت
شَارح دواوين الشّعراء
(186 ـ 244هـ)

ابنُ السّكيتِ، شَارحُ دَواوينِ الشُّعراءِ، وحافِظُ الشِّعرِ العربيِّ وراويهِ، ومُصلحُ النُّطقِ العربيِّ في اللِّسانِ العربيِّ المُبينِ. فهو مِنْ ذَوي الشَّأنِ في عُلومِ اللُّغةِ والأدبِ، ومِنْ أَساطينِ العلمِ الأوائلِ الَّذِيْنَ عاشوا في العصرِ العباسيِّ، وحاولَ كَغيرِهِ ـ عَلى الرَّغمِ مِنْ أَصلِهِ غيرِ العربيِّ ـ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ، حمايَةَ اللُّغةِ العربيَّةِ وأَلفاظِها وقَواعدِها مِنَ اللَّحنِ والخَطأِ، ومِنْ حَركَةِ العَجمنَةِ الَّتِي غَزَتِ المُجتمعَ العربيَّ والإسلاميَّ، وحاولَتِ التَّشويشَ عَلى اللُّغةِ العربيَّةِ، وتَحريفَ قَواعدِها، وحَرفَ أَلفاظِها في عُقرِ دارِها، وذَلِكَ بَعدَ أَنْ فَتَحَ خُلفاءُ بَني العبَّاسِ البابَ عَلى مِصراعيهِ لِلأَعاجمِ الَّذِيْنَ والوهُمْ في تَبوُّءِ المَناصبِ العلميَّةِ والإداريَّةِ في الدَّولَةِ، وشَجَّعوهُمْ عَنْ سَبقِ رَصدٍ وتَعمُّدٍ لِلسَّيطرَةِ عَلى شُؤونِ الحياةِ في المُدنِ والحواضِرِ، والهيمنةِ عَلَى المَرافقِ العامَّةِ فيها.

أَجَل، لَقَدْ كانَ «ابنُ السّكيتِ» مِنْ أَعلامِ العربِ المُسلمينَ الأوائلِ المنحدرين مِنْ أَصلٍ غيرِ عَربيٍّ، الَّذِيْنَ سَعَوا بِكُلِّ جهدٍ وإِصرارٍ لأَجلِ حِمايَةِ اللُّغةِ العربيَّةِ الجميلةِ مِنْ أَنْ

يُداخلَها اللَّحنُ والتَّحريفُ، وكانَ كتابُهُ «إصلاحُ المَنطقِ» أَوَّلَ كتابٍ رائِدٍ عَلى هذا الطَّريقِ، حيثُ قَدَّمَ فيهِ أَوَّلَ مُحاوَلَةٍ يَسعَى إليها عالمٌ بِلغَةِ العربِ وأَلفاظِهِمْ وكلامِهِمْ في التَّفريقِ بينَ اللَّفظِ العربيِّ المُبينِ والصَّحيحِ، وبينَ ما دَرجَ عَلى لِسانِ العامَّةِ مِنْ هذِهِ الأَلفاظِ ذاتِها الَّتِي داخلَها اللَّحنُ والتَّحريفُ، وهَذا أَمرٌ يَتَطلَّبُ درايَةً قُصوَى بِاللُّغةِ وقَواعدِها وبِلهجاتِ القبائِلِ العربيَّةِ، وبِدِلالَةِ الكَلماتِ وأَوزانِها ومُشتَّقاتِها، فَكانَ «ابنُ السّكيتِ» عالِماً بِكُلِّ ذَلكَ، مُحيطاً عِلمَهُ بِلهجاتِ العربِ وقِراءاتِها، ومُدركاً لِحقيقَةِ أَلفاظِها، ومُلِمّاً بِمصادرِها.

أَضِفْ إِلَى ذَلِكَ، أَنَّ «ابن السّكيتِ» عالمٌ موسوعيٌّ، عُرفَ بِغزارةِ إِنتاجِهِ العلميِّ والأَدبيِّ، وكما قيلَ عَنْهُ: إنَّ مُؤلَّفاتِهِ ـ ولا سيَّما كتابَهُ المَشهورَ «إِصلاحَ المَنطقِ» ـ خَلقَتْ حركةً أَدبيَّةً استمرَّتْ مِئاتِ السِّنين حَتَّى يومِنا هذا، حيثُ تَناوَلَها العُلماءُ والأُدباءُ بِالشَّرحِ والتَّهذيبِ والتَّنقيحِ، والرُّدودِ والتَّلخيصِ... إلخ.

ولا يَفوتُنا أَنْ نذكُرَ في هذا المَقامِ، أَنَّ «ابن السّكيتِ» كانَ مِنْ زُمرةِ العُلماءِ الرَّبانيينَ الَّذِيْنَ لا تَأْخذُهُمْ في قَولِ الحَقِّ لومَةُ لائِمٍ، قَدَّمَ حياتَهُ قُرباناً للمبادئِ الَّتِي آمَنَ بِها، وانعقَدَ عَليها قَلبُهُ، تِلكَ المبادئُ والغاياتُ النَّبيلةُ والشَّريفَةُ، والمُضيئَةُ في عالمِ القلبِ والرُّوحِ الَّتِي لَمْ تَكُنْ لِتروقَ لِلحُكَّامِ وولاةِ الأَمرِ في ذَلِكَ الحينِ، وكَذَلِكَ لا تَروقُ لِمَنْ حَذا حَذوهُمْ في كُلِّ عَصرٍ وحينٍ.

فَمَنْ هُوَ «ابنُ السّكيتِ»، وأَينَ ولدَ وعاشَ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنقرؤُهُ ونَعرفُهُ عبرَ هذِهِ الصَّفحاتِ.

❋ ❋ ❋

هوَ أَبو يوسُفَ يَعقوبُ بن إسحاقَ الخُوزيُّ، المَعروفُ بِـ «ابنِ السّكيتِ»، والسّكيتُ: لَقبُ أَبيهِ إِسحاقَ، وقيلَ: إِنَّهُ لُقِّبَ بِهذا اللَّقبِ لأَنَّهُ كانَ دائِمَ السُّكوتِ، ويُلازِمُ الصَّمتَ في أكثرِ أَحوالِهِ، ولا يَتكَلَّمُ إِلَّا عِندَ الحاجَةِ.

ومِنَ الواضِحِ أَنَّهُ مِنْ أَصلٍ غيرِ عَربيٍّ؛ إِذْ يُنسبُ إِلَى إِقليمِ خوزستانَ في بِلادِ فارس، غيرَ أنَّ أَباهُ كانَ يُجيدُ العربيَّةَ بإتقانٍ ومهارةٍ فائِقَةٍ، وكانَ مِنْ أَصحابِ شَيخِ نُحاةِ الكوفَةِ «أَبي حمزةَ الكِسائيِّ»؛ وقَدْ أَجمعَ المُؤَرِّخُونَ عَلى أَنَّ «ابن السُّكيتِ» ولدَ سنةَ (186) هجريَّةً، ولَكِنْ ذَكَرَ البَعضُ أَنَّهُ ولِدَ في الدُّروقِ، وهيَ مِنْ مَدائِنِ خوزستانَ، ثُمَّ رَحلَ مِنها إِلى بَغدادَ مَعَ أُسرَتِهِ، وفي الغالبِ أَنَّهُ ولِدَ في بَغدادَ، بَعدَ أنِ انتقَلتْ أُسرَتُهُ لِلعيشِ في بَغدادَ، ولازمَ أَبوهُ «الكسائِيَّ» وأَخذَ عَنهُ عُلومَ اللُّغَةِ العربيَّةِ حَتَّى أَصبحَ ضالِعاً فيها، فَأَجازَهُ شَيخُهُ «الكِسائِيُّ» بِالتَّعليمِ والتَّدريسِ.

نَشأَ «ابنُ السّكيتِ» في بيتِ علمٍ وأَدبٍ، ووَرعٍ ودينٍ، وتَلقَّى العلمَ عَنْ أَبيهِ منذُ نُعومَةِ أَظفارِهِ، وظَهَرَتْ عَليهِ مَخايلُ النَجابَةِ، وأَماراتُ الذَّكاءِ في وَقتٍ مُبكِّرٍ مِنْ حياتِهِ.

ويَذكرُ «ياقوتُ الحمويُّ» في مُعجمِ الأُدباءِ: أَنَّ رَجلاً ـ ورُبَّما كانَ مِنَ الأَعيانِ أَو العُلماءِ ـ رَأَى «ابنَ السِّكيتِ» وهوَ صَغيرٌ، يُسأَلُ، فَيُجيبُ، فقالَ: هذا الغُلامُ يَنالُ خيراً.

طافَ «ابنُ السِّكيتِ» عَلى كَوكبَةٍ مِنْ عُلماءِ عَصرِهِ يَأخذُ عَنْهُمْ، ويَسمعُ مِنهُمْ، وعلى رأسِهِمْ «أَبو عمرو الشَّيبانيُّ الكوفيُّ»[1]، و«نَصرُ بنُ يوسُفَ»[2] صاحبُ الكسائيِّ، و«ابن الأَعرابيِّ»[3] وغيرُهُمْ.

عَملَ «ابنُ السِّكيتِ» مَعَ أَبيهِ في تعليمِ وتَأديبِ الصِّبيانِ بِدارٍ في حَيٍّ مِنْ أَحياءِ بَغدادَ يُدعَى «دربُ القنطرةِ»، ويَذكرُ ابنُ عساكرَ: إِنَّ الحاجةَ إِلى الكَسبِ دَعَتِ ابنَ السّكيتِ لِتعلمِ النَّحوِ وتَعليمِهِ، وكانَ أَبوهُ يَأملُ ويَتَمنَّى أَنْ يُعلِّمَ ابنَهُ علمَ النَّحوِ، لِما يُدرُّهُ تَعليمُهُ مِنْ أَجرٍ وَفيرٍ، فَدَعا اللهَ وتوسَّلَ إِليهِ في إِحدَى زياراتِهِ لبيتِ اللهِ الحرامِ أَنْ يَرزقَ ابنهُ تعليمَ النَّحوِ، فاستجابَ اللهُ دُعاءَهُ، فَجعلَ «ابن السّكيتِ» يَختلفُ إِلى قَومٍ في دربِ القَنطرةِ، يُعلِّمُ أَولادَهُمُ النَّحوَ واللُّغةَ، وأَجروا لَهُ كُلَّ دَفعةٍ عَشرةَ دراهمَ وأَكثرَ، ثُمَّ تَعرَّفَ عَلى مُحمَّدِ بنِ عبدِ اللهِ بنِ طاهرٍ ـ وكانَ مِنْ كبارِ الأَعيانِ وموظفي الدَّولةِ ـ وعَملَ مُؤدِّباً لِوَلدِهِ، فَأجرَى عليهِ مُرتَّباً شَهريّاً خَمسمئَةَ درهَمٍ، ثُمَّ جَعلَها أَلفَ درهمٍ، وعَنْ طَريقِهِ استدعاهُ الخَليفَةُ المُتوكِّلُ إِلىَ مكانِ إِقامتِهِ في «سُرَّ مَنْ رَأَى» لِتأَديبِ وَلديهِ المُؤَيَّدِ والمُعتزِّ.

❁ ❁ ❁

---

(1) إِسحاق بن مرار أَبو عمرو الشّيبانيّ الكوفيّ، كان مؤدباً لأَولاد الرّشيد وكان راوية أهل بغداد، واسع العلم باللّغة والشّعر وله عدّة كتب في اللّغة. توفي سنة 206هـ، وعاشَ 118 سنة.

(2) نَصرُ بنُ يوسُفَ صاحبُ الكسائيِّ كانَ نحوياً لغوياً، أخذ عنه كبار العلماء، ومنهم ابن السكيت.

(3) ابن الأعرابي: هو أبو عبد الله بن زياد المعروف بابن الأعرابي الكوفي صاحب اللغة، وهو من موالي بَني العباس بن عبد المطلب، كان رأساً في كلامِ العربِ.

اشْتُهِرَ «ابنُ السّكيتِ» بينَ عُلماءِ عَصرِهِ بِـ «شارحِ دواوينِ الشُّعراءِ»، فَكانَ حافِظاً لِلشِّعرِ راويَةً لَهُ، لَمْ يَدَعْ شاعراً مِنْ شُعراءِ العربِ في الجاهليَّةِ والإسلامِ، وإِلَّا وجَمعَ لَهُ شعرَهُ وشَرحَهُ، فَطفِقَ النَّاسُ يَقصدونَهُ لإِتحْافِهِمْ بِما يَحفظُهُ ويَرويهِ مِنْ شعرِ العربِ، وكَذلِكَ بِما يَعرفُهُ مِنْ لُغَتِهِمْ ودِلالةِ أَلفاظِها ومَعانيها.

يَقولُ عنهُ ياقوتُ الحمويُّ في مُعجمِهِ: «كانَ علَّامةً في القُرآنِ ونَحوِ الكوفيينَ، ومِنْ أَعلمِ النَّاسِ بِاللُّغةِ والشِّعرِ، راويَةً ثِقةً، ولَمْ يَكُنْ بَعد ابن الأَعرابيِّ مِثلُهُ».

وقالَ عَنهُ «أبو العبَّاسِ ثَعلبُ»: «أَجمعَ أَصحابُنا، أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَعدَ «ابن الأَعرابيِّ» أَعلمُ بِاللُّغةِ مِنِ «ابنِ السّكيتِ»[1].

فَكَما كانَ لابن السِّكيتِ دورٌ هامٌّ في جَمعِ أَشعارِ العربِ وتَدوينِها، كانَ لَهُ نَشاطُهُ المَلحوظُ في اللُّغةِ وعلمِ النَّحوِ. ولَقَدْ أَحدثَ كتابُهُ «إِصلاحُ المنطقِ» الَّذِي وَضعَهُ في اللُّغةِ وألفاظِها ودلالاتِها صَدىً واسعاً في عَصرِهِ، وبَوَّأَهُ مَكانَةً هامَّةً بينَ أَربابِ اللُّغةِ في مُختلفِ العصورِ.

فقالَ عَنهُ إِمامُ البَصريينَ في النَّحوِ «أَبو العبَّاسِ المُبرِّدُ»: «ما رأيتُ لِلبغداديينَ كتاباً أَحسنَ مِنْ كتابِ «ابنِ السّكيتِ» في المنطقِ».

ولَقَدْ كانَ اعتمادُ «الميدانيِّ» في كتابِهِ «مُعجمِ الأَمثالِ» عَلى رِواياتِ وشُروحِ وآراءِ

---

(1) كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان. وأبو العباس ثعلب كان إمام مدرسة الكوفيين في النحو.

«ابنِ السّكيتِ»، وكَذلكَ كانَ الأَمرُ مَعَ «البَغداديِّ» في كتابِهِ «خزانةِ الأَدبِ ولُبِّ لبابِ لِسانِ العربِ».

وما زالَتْ ـ في عَصرنا هذا ـ شُروحُ وآراءُ «ابنِ السّكيتِ» مَنهلاً ثَرياً لِعُلماءِ العربيَّةِ ولِلمُجتهدينَ في أُسُسِها وقَواعدِها.

ومِنَ الأَمثلةِ الَّتِي يَتبيَّنُ لَنا مِنْ خِلالِها غيرَةُ «ابنِ السّكيتِ» وحرصُهُ الشَّديدُ عَلى حمايَةِ اللُّغةِ العربيَّةِ مِنَ اللَّحنِ والتَّحريفِ، ما ذَكرَهُ «ابنُ خَلكانَ» في «وَفيَّاتِ الأَعيانِ»:

«قالَ أَبو الحسنِ الطّوسيُّ: كُنَّا في مَجلسِ أَبي الحسنِ اللّحيانيِّ[1]، فقالَ يَوماً: تَقولُ العربُ: «مُثقَلٌ استعانَ بِذَقنِهِ»، فقامَ إِليهِ «ابنُ السّكيتِ» وكانَ حَدثاً فَقالَ: يا أَبا الحسنِ، إِنَّما هوَ «مُثقَلٌ استعانَ بِدَفَّيهِ» يُريدونَ الجملَ إِذا نَهضَ استعانَ بِجنبيهِ، فَقطعَ الإِملاءَ.

فَلمَّا كانَ المجلسُ الثَّاني أَملَى فقالَ: تَقولُ العربُ «وهوَ جاري مُكاشري»، فقامَ لَهُ «ابن السِّكيتِ» فقالَ: أَعزَّكَ اللهُ، وما مَعنَى مُكاشري؟ إِنَّما هوَ «هوَ مُكاسري» كسرَ بيتي إِلى كَسرِ بيتِهِ! قالَ: فقطعَ اللّحيانيُّ الإِملاءَ، فَما أَملَى بَعدَ ذَلكَ شَيئاً».

❁ ❁ ❁

شَهدَ «لابنِ السّكيتِ» في ضلوعِهِ بِاللُّغةِ والأَدبِ كَثيرونَ مِنْ عُلماءِ عَصرِهِ، أَو الَّذِيْنَ

(1) أبو الحسن اللحياني: هو علي بن حازم اللحياني، سمي بذلك لعظم لحيته. له كتاب النوادر، وأخذ عنه الأصمعي والكسائي، كان من كبار علماء بغداد.

أَتَوا بَعدهُ، وأَشادوا بِعلمِهِ وبِتَمسُّكِهِ بِدينِهِ ومبادئِهِ، وعَدُّوهُ مِنَ الرُّواة الثِّقاةِ. يَقولُ عَنهُ اللُّغويُّ المَشهورُ «أَبو الفداءِ»: «كانَ إِماماً في اللُّغةِ والأَدبِ».

وهوَ عندَ الأَنباريِّ: «مِنْ أَكابرِ أَهلِ اللُّغةِ».

ويَقولُ عَنهُ «ابن العِمادِ»: «سَبقَ أَقرانَهُ في الأَدبِ، معَ حَظٍّ وافرٍ في السُّننِ والدِّينِ».

وكانَ شَديدَ التَّمسُّكِ بِالسُّنَّةِ النَّبويَةِ، والعقائِدِ الدِّينيَّةِ، فَعدَّهُ الإِمامُ الذَّهبيُّ: قَوياً في دينِهِ، برّاً مُحتَسباً، وذَكَرَتْ عَنْهُ المَصادرُ: إِنَّهُ كانَ مُستَميتاً في حُبِّهِ للنَّبيِّ ﷺ، وفي مَحبَّتِهِ لآلِ بيتِهِ الأَطهارِ، وإِنَّهُ كانَ مِنْ خاصَّةِ الإِمامينِ الجَوَّادِ والهادي رضي الله عنهما، وأَشاروا إِلى رِواياتِهِ عَنِ الإِمامِ الجوَّادِ رضي الله عنه.

وذَكرَ لَهُ المُؤَرِّخُونَ الآثارَ التَّاليَةَ:

1 ـ كتابَ «إِصلاحِ المَنطقِ»: وعالجَ فيهِ ما طَرأَ عَلى لُغةِ العربِ مِنَ الخَطأ واللَّحنِ، وجمعَ فيهِ الأَلفاظَ الَّتِي تَتَّفقُ في الوزنِ الواحدِ معَ اختلافِ المَعنَى، أَو المُختلفةَ فيهِ معَ اتِّفاقِ المَعنَى، وما فيهِ لُغتانِ أَو أَكثرُ، وما يُعَلُّ وما يَصحُّ، وما يُهمزُ وما لا يُهمزُ، وما تُلحنُ فيهِ العامَّةُ، وما إِلى ذَلِكَ مِنْ فُصولِ الضَّبطِ اللُّغويِّ. يَقولُ الوزيرُ المُغربيُّ في كتابِهِ «المنخلِ في إِصلاحِ المَنطقِ»: «إِنِّي وَجدْتُ إِصلاحَ المَنطقِ طَريقاً مُعبَّداً لِسُلَّاكِ الأَدبِ، وداراً محلالاً مِنْ روَّادِ العلمِ، قراءَتُهُ فَريضَةٌ وحِفظُهُ سُنَّةٌ».

2 ـ كتابَ الأَضدادِ.

3 ـ كتابَ تَهذيبِ الأَلفاظِ.

4 ـ كتابَ القلبِ والإبدالِ.

وهذِهِ الكُتبُ وَصلتْ إلينا مَطبوعةً، ولَهُ مُؤلَّفاتٌ ما تزالُ مَخطوطةً ومَحفوظَةً في المَكتباتِ والمتاحفِ العربيَّةِ والعالميَّةِ، كما أَشارَ المُؤَرِّخُونَ إلى مُؤلَّفاتٍ لَمْ تَصِلْ إلينا، ضاعَتْ واندثَرَتْ.

كما كانَ «ابنُ السِّكيتِ» شاعراً مُجيداً، رَوَتْ لَهُ كُتُبُ الأَدبِ الكثيرَ مِنَ القَصائِدِ والأَبياتِ الشِّعريَّةِ الَّتِي قالَها في المُناسباتِ والأَحداثِ، إلَّا أَنَّهُ كانَ مُقِلّاً مِنْهُ، ولَمْ يَكُنْ قَولُ القَريضِ بِالنِّسبَةِ لَهُ حِرفَةً أَو هوايةً يُمارسُها في كُلِّ الأَوقاتِ كما يَفعلُ الشُّعراءُ، وإنَّما كانَ يَرتَجزُهُ عِندما تَفيضُ نَفسُهُ وتمتلئُ بِالمشاعرِ الفَيَّاضَةِ، والإحساسِ المُرهفِ، كما كانَ أَديباً أَريباً تَتَّصفُ أَقوالُهُ بِالجزالَةِ والحِكمَةِ.

ومِنْ أَقوالِهِ الَّتِي يُوصي بِها طالبَ العلمِ، قَولُهُ:

«خُذْ مِنَ الأَدبِ ما يَعلقُ بِالقلوبِ وتَشتَهيهِ الآذانُ، وخُذْ مِنَ النَّحوِ ما تُقيمُ بِهِ الكلامَ، ودَعِ الغَوامضَ، وخُذْ مِنَ الشِّعرِ ما يَشتَملُ عَلى لَطيفِ المعاني»[1].

❁ ❁ ❁

كانَت بِدايَةُ عَهدِ «ابنِ السِّكيتِ» مَعَ الخَليفَةِ المُتوكِّلِ، عِندما اختارَهُ الوزيرُ «ابنُ خاقانَ» لِيكونَ مُؤدِّباً ومُعلِّماً لِوَلديِّ الخَليفَةِ، وذَلكَ بَعدَ أَنْ سَمعَ الخَليفَةُ بِقوَّةِ عِلمِهِ وشدَّةِ دينِهِ واتِّباعِهِ لِسُنَّةِ النَّبيِّ الأَعظمِ ﷺ، فَاسْتدعاهُ إلى قَصرِ الخِلافَةِ في «سُرَّ مَنْ رَأى»،

(1) معجم الأدباء لياقوت الحموي.

فَعكفَ «ابنُ السِّكيتِ» عَلى تَأديبِ ابنيّ الخليفةِ وتَعليمِهما أَحسَنَ تَأديبٍ وتَعليمٍ، حَتَّى صارا يَتسابقانِ إِلى تَقديمِ نَعليهِ، وكانَ الخَليفَةُ يُغدقُ عليهِ الأَموالَ والهَدايا ويُبالغُ في إِكرامِهِ، ثُمَّ ما لَبِثَ الخليفَةُ أَنْ جَعلَهُ في عدادِ نُدمائِهِ ومِنَ المُقرَّبينَ مِنْهُ، وعَلَى الرَّغمِ مِنْ نَصيحَةِ بَعضِ ذَوي الأَدبِ والأَربِ لِابن السّكيتِ بِتجنُّبِ مُنادمةِ الخليفةِ والعزوفِ عَنْ مَجلسِهِ إِلَّا لِحاجَةٍ، إِلَّا أَنَّ «ابن السّكيتِ» لَمْ يَكترِثْ لِلنُّصحِ، وأَقبلَ عَلى منادمةِ الخَليفَةِ، وفاتَهُ أَنَّ مَجالسَ ذَوي الأَمرِ والشَّأنِ لا يَخلو شَرُّها، ولا يَسلَمُ رُوَّادُها مِنْ حَسدِ الحاسدينَ، ومِنْ فتنَةِ الواشينَ، فَوقَعَ في ليلَةٍ ليلاءَ ما لَمْ يَكُنْ يَتوَقَّعُهُ «ابنُ السِّكيتِ»، أَو يَخطرُ عَلى بالِهِ، فَوقعَ المَكروهُ، وماتَ «ابنُ السِّكيتِ» شَهيداً، مُدافِعاً عَنْ مبادئِهِ أَمامَ جَبروتِ الخَليفَةِ وعسفِهِ.

وكانَ مِنْ خَبرِ هذِهِ الحادثةِ أَنَّ المتوكِّلَ قَدْ نَقمَ يَوماً عَلى أَنصارِ آلِ البيتِ ـ وكانَ «ابنُ السِّكيتِ» واحداً مِنهُمْ، فَعمَدَ المُتوكِّلُ إِلَى هَدمِ قبورِ أَعلامِ آلِ بيتِ النُّبوَّةِ ومَعدنِ الرِّسالَةِ، فَقالَ «ابنُ السِّكيتِ» أَبياتاً شعريَّةً يَنتقدُ فيها هَذا التَّصرُّفَ الَّذِي أَقدمَ عليهِ الخليفَةُ في غيرِ حَضرَتِهِ، فَنقلَها أَحدُ الوشاةِ على الفَورِ إِلى المُتوكِّلِ.

وعِندما حَضرَ «ابنُ السِّكيتِ» مجلسَ الخليفةِ، أَشارَ المتوكِّلُ إِلى وَلديهِ (المُؤيدِ والمُعتزِّ) وسأَلَهُ قائِلاً: يا يَعقوبُ، أَيُّهُما أَحبُّ إِليكَ: ولَداي المُؤيَّدُ والمُعتزُّ، أَمِ الحسَنُ والحُسينُ أَولادُ عَليٍّ؟ فرَدَّ عليهِ «ابن السِّكيتِ» بُكلِّ ثقةٍ ورَباطَةِ جَأشٍ: واللهِ إِنَّ قنبراً خادمَ عَليٍّ خيرٌ مِنكَ ومِنْ وَلديكِ، وفي رِوايَةٍ: ومِنْ أُمِّهِما، فَغضبَ المُتوَكِّلُ أَيما غَضبٍ، وقالَ لِحُجَّابِهِ ورِجالِهِ:

سُلُّوا لِسانَهُ مِنْ قَفاه، فَفعلوا، ثُمَّ داسوا بَطنَهُ، فَماتَ عَلى فَورِهِ.

وكانَتْ وفاتُهُ رَحمهُ اللهُ تَعالَى ليلَةَ الإِثنينِ لِخمسٍ خَلونَ مِنْ شَهرِ رَجبٍ سَنةَ (244) هجريَّةً، ويُقَالُ: إِنَّهُ بَلغَ مِنَ العُمرِ عندَ موتِهِ (85) سنةً، ويُقَالُ: إِنَّ المُتوكِّلَ أَرسلَ إِلى أَهلِ «ابن السّكيتِ» عَشرَةَ آلافِ درهماً، كَديَّةٍ وكَتعويضٍ عَنْ قَتلِهِ.

ومِنْ شعرِ «ابن السّكيتِ» قَولُهُ:

يا راقدَ اللَّيلِ مسروراً بِأَوَّلِهِ ... إِنَّ الحوادثَ قَدْ يُطرقنَ أَسحاراً

أفنَى القرونَ الَّتِي كانَتْ مُسلَّطةً ... مَرُّ الجديدينِ إِقبالاً وإِدباراً

مَنْ يُكابِدُ دُنيا لا مُقامَ لَها ... يُمسي ويُصبحُ في دُنياهُ سَيَّاراً

كَمْ أَبادَتْ صروفُ الدَّهرِ مِنْ مَلكٍ ... قَدْ كانَ في الأَرضِ نَفاعاً وضَرّاراً[1]

(1) البصائرُ والذّخائِرُ لأبي حيان التوحيدي.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا حاولَ «ابنُ السِّكيتِ» أنْ يفعلَ؟

2 ـ ماذا قَدَّمَ «ابن السِّكيتِ» في كتابِهِ «إصلاحِ المَنطقِ»؟

3 ـ ماذا خَلَقَتْ مؤلَّفاتُ ابنِ السِّكيتِ؟

4 ـ ما هوَ أَصلُ «ابن السِّكيتِ» وأَينَ ولدَ، ومَنْ لازمَ أبوهُ؟

5 ـ مَنْ هُمْ أشهرُ العُلماءِ الَّذِيْنَ أَخذَ عنهُمُ ابنُ السّكيتِ العلمَ؟

6 ـ ماذا قالَ الوزيرُ المغربيُّ عن كتاب إِصلاحِ المنطقِ؟

7 ـ كيَفَ كانَ الخَليفَةُ المتوكِّلُ يُعاملُ ابنَ السّكيتِ؟

8 ـ لِماذا أمرَ المُتوكِّلُ رِجالَهُ بِتعذيبِ ابن السّكيتِ؟

ابن سيده
إمام اللغة في الأندلس
(186 ـ 244هـ)

ابنُ سيده الأندلسيُّ، إمامُ اللُّغَةِ والنَّحوِ والشِّعرِ في بِلادِ الأَندلسِ في عَصرِهِ، مِنْ أَذكياءِ العربِ، بَلْ مِنْ أذكياءِ العالمِ العُميانِ الَّذِيْنَ مَرّوا عَلى تاريخِ العربِ والبَشريَّةِ أَجمع، وقَدْ عَدَّهُ العلَّامةُ «صلاحُ الدِّينِ الصَّفديُّ» في كتابِهِ «نَكتِ الهميانِ في نُكتِ العميانِ» مِنْ عُميانِ العربِ النَّابهينَ والأَذكياءِ.

فَلَقَدْ عَوضَهُ اللهُ عَنْ نِعمَةِ البَصرِ قوَّةَ البَصيرَةِ في قَلبِهِ وعَقلِهِ مَعاً، فَكانَ شَديدَ الحفظِ، سَريع البَديهَةِ، حاضرَ الحجَّةِ، يَتمتَّعُ بِذكاءٍ مُبدعٍ وخارقٍ، ويُذَكِّرُنا «ابنُ سيده» بِعلَّامةِ العصرِ الحديثِ في الثَّقافَةِ واللُّغةِ، وعَميدِ الأَدبِ العربيِّ «طَهَ حُسين» وكانَ مِثلَهُ ضَريراً.

يَقولُ «صلاحُ الدِّينِ الصَّفديُّ» في كتابِهِ المَذكورِ، مُنوِّهاً ومُعلِّلاً عَلى قوَّةِ بَصيرةِ العُميانِ: «والسَّببُ الَّذِي أَراهُ في ذَلكَ، أَنَّ ذهنَ الأَعمَى وفِكرَهُ يَجتمعُ عليهِ، ولا يَعودُ مَتَشَعباً بِما يَراهُ، ونَحنُ نَرَى الإِنسانَ إِذا أَرادَ أَنْ يَتذكَّرَ شَيئاً نَسيَهُ، أَغمضَ عينيهِ وفَكَّرَ، فَيَقعُ عَلَى ما شَرَدَ مِنْ حافظَتِهِ».

ومِنَ الأَمثلَةِ الَّتِي دَرجَتْ عَلى أَلسنَةِ النَّاسِ منذُ القَديمِ، وأَوردَها «الميدانيُّ» في كتابِهِ «مُعجمِ الأَمثالِ»: (أَحفَظُ مِنَ العُميانِ) يُريدونَ بِهِ مَدحَ المُبصرِ سَريعِ الحفظِ.

أَقولُ: إِنَّ «ابنَ سيده»، العالمَ الضَّريرَ، أَدركَ بِذكائِهِ ما لَمْ يُدركْهُ المُبصرونَ، وأصابَ مِنَ العِلمِ لُبَّهُ وجَوهَرَهُ، وأَحاطَ عَقلُهُ النَّافذُ بِشَتَّى عُلومِ عَصرِهِ، وأَصبَحَ عِندَ أَهلِ الأَندلسِ، موضِعَ فَخرٍ وإِعجابٍ، يُباهونَ بِهِ وبِعلمِهِ أَمامَ كُلِّ عالمٍ بارعٍ مُبصرٍ قادمٍ إِليهِمْ مِنَ المَشرقِ العربيِّ أَو مِنْ بِلادِ المَغربِ الأَقصَى.

لَمْ يَترُكِ «ابنُ سيده» كِتاباً في اللُّغةِ والأدبِ والنَّحوِ لِعُلماءِ المَشرقِ والمَغربِ، أو لِعُلماءِ الأَندلسِ ـ سواءٌ كانوا قبلَهُ أَو في عَصرِهِ ـ وصلَ إِليهِ، إِلَّا حَفظَهُ سَماعاً، وأَدرَكَهُ ووَعَى ما فيهِ، وعياً وإِدراكاً كاملينِ. واستطاعَ أَنْ يُفيدَ بِحفظِهِ النَّاسَ، وأَنْ يَستدركَ بِوعيهِ النَّقصَ والخَطأَ في تِلكَ الكُتبِ، وأَنْ يُصَحِّحَ أَغلاطَ المُصنِّفينَ والمُؤلِّفينَ.

وتَزدادُ مَعرَفتُنا بِـ «ابن سيده» إِعجاباً، إِذا عَلِمْنا أَنَّ والِدَهُ أَيضاً كانَ ضَريراً، وهَذا يَعني أَنَّ عَلى الابنِ أَنْ يَبذلَ جُهداً مُضاعفاً لِتجاوزِ عَقباتِ الحياةِ، ولِتَحقيقِ مَصالحِ عيشِهِ، وأَنْ يَعتمدَ عَلى نَفسِهِ في الكَسبِ والتَّعلُّمِ، وغيرِ ذَلِكَ مِنَ الحاجاتِ الضَّروريَّةِ الَّتِي غالباً ما يَعتمدُ المَرءُ في تَحقيقِها، أَو تَحصيلِ جزءٍ مِنها عَلى وَليِّ أَمرِهِ، ولَكِنَّ «ابن سيده» حَقَّقَ وأَدركَ مِنْ علوِّ المنزلةِ العلميَّةً بينَ أَبناءِ عَصرِهِ ما لَمْ يُحَقِّقْهُ المُبصرونَ بِكُلِّ ما أُوتوا مِنْ هِمَّةٍ، أَو مِنِ امتلاكٍ لِلوسائِلِ والأَسبابِ الَّتِي تُساعدُهُمْ أَو تُعينُهُمْ عَلى ذَلكَ.

فَمنْ هوَ ابنُ سيده؟ وأَينَ عاشَ؟ وكيفَ كانَتْ حياتُهُ؟

❁ ❁ ❁

هوَ أَبو الحسَنِ عَليٌّ بنُ إسماعيلَ المَعروفُ بِـ «ابن سيده» المَرسيُّ، نسبةً إِلَى مَدينةِ مَرسيَّةَ في بِلادِ الأَندلسِ، ويُقَالُ: إِنَّ لَقبَ «ابنِ سيده»[1] كانَ في الأَصلِ يُطلَقُ عَلى أَبيهِ إِسماعيلَ الَّذِي كانَ مِنَ الأَعيانِ والعُلماءِ والمُحدِّثينَ في بَلدتِهِ، ثُمَّ أُطْلِقَ عَليهِ كَما جَرَتِ العادةُ قَديماً، حيثُ كانَ مِنَ المُتعارفِ عليهِ بينَ النَّاسِ إِطلاقُ لَقبِ الأَبِ عَلى الابنِ.

كَما اختلفَ المُؤَرِّخُونَ في اسمِ أَبيهِ، فذكرَ بَعضُهُمْ أَنَّ اسمَهُ «أَحمدُ»، وبَعضُهُمْ ذَكرَ أَنَّ اسمَهُ «مُحمَّدٌ»، ولَكِنَّ الأَصحَّ ما ذَهبَ إِليهِ المُؤرِّخُ الأَندلُسيُّ «ابنُ بَشكوالَ» بِأَنَّ اسمَهُ «إِسماعيلُ».

ولِدَ «ابنُ سيده» في مَدينةِ مَرسيَّةَ سنةَ (398) هجريَّةً، ودرجَ وتَرعرَعَ فيها، ونَشأَ في بيتِ أَبيهِ عَلى حُبِّ العلمِ وتَحصيلِهِ، فَأَخذَ في البِدايَةِ عَنْ أَبيهِ الَّذِي كانَ ضَريراً أَيضاً ما استطاعَ سَماعَهُ وتَحصيلَهُ مِنْهُ، وكانَ أَبوهُ قَدْ تَلقَّى العلمَ عَنِ العلَّامةِ الزُّبيديِّ الأَندلسيِّ الَّذِي كانَ حِجَّةَ أَهلِ الأَندلسِ في علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، ولَكِنْ ما كادَ الابن يَتفَتَّحُ عقلُهُ عَلى الدُّنيا حَتَّى لَقيَ أَبوهُ وَجهَ رَبِّهِ، وانْتَقَلَ مِنْ دارِ الفَناءِ إِلى دارِ البَقاءِ، فَعاشَ «ابنُ سيده» الابنُ يَتيماً، وكُتِبَ عليهِ أَنْ يُواجهَ مَشاقَّ الحياةِ وهوَ صَغيرٌ لَمْ يَشُبَّ عَنِ الطَّوقِ بَعدُ.

عكفَ «ابنُ سيده» عَلى مُطالعَةِ كُتُبِ اللُّغةِ والأَدبِ الَّتِي وَرثَها عَنْ أَبيهِ، وحَفظَ أَكثرَها، كما أُتيحَ لَهُ الاطِّلاعُ عَلى كُتُبِ عُلماءِ اللُّغةِ المَشرقيينَ ـ مِنْ بِلادِ الشَّامِ والعراقِ

(1) كما اشتُهرَ بهذا اللّقب المُحدّثُ أَبو المَعالي محمّد بن عبد الله المَعروف بابن سيده الدّمشقيّ، المتوفى في دمشق سنة 637هـ.

ومصرَ ـ الَّتِي غَزَتْ بِلادَ الأَندلسِ في غرَّةِ تِلكَ المرحلةِ مِنَ التَّاريخِ، فَمثلاً حَفظَ كتابَ «إِصلاحِ المَنطقِ» «لابن السِّكيتِ» وعَلَّقَ عليهِ وشَرحَهُ وهوَ لَمْ يَزَلْ حدَثَ السِّنِّ، كما قَرأَ كُتُبَ الأَصمعيِّ وابنِ الأَعرابيِّ وأَبي عُبيدةَ.

يَقولُ «ابنُ سيده» ذاكراً تَعلُّقَهُ بِهذِهِ الكُتبِ مُعتدّاً بِنفسِهِ بِفخرٍ وتَعالٍ عَلى المُتعلِّمينَ مِنْ أهلِ عَصرِهِ: «وأَمَّا ما في كتابِ الإِصلاحِ والأَلفاظِ وكُتبِ ابن الأَعرابيِّ وأَبي زيدٍ، وأَبي عُبيدةَ، والأَصمعيِّ وغيرِهِمْ مِنْ أَمثالِ هذا الَّذِي وضَعتُ (أَيْ كتابَ المحكمِ) فَأَكثرُ مِنَ الَّذِي يُحصَى مَدَدُهُ أَو يَحصرُهُ عَددُهُ، وهَلْ يَقومُ بِاعتقادِ هذا النَّوعِ إِلَّا مِثلي مِنْ ذَوي الحفظِ الجليلِ، والاضطلاعِ بِعلمِ النَّحوِ وصِناعةِ التَّحليلِ (أَي علمَ المنطقِ)؟! وإِنْ كُنتُ بينَ حُثالَةٍ جَهلَتْ فَضلي وأَساءَ الدَّهرُ في جَمعِهِمْ بِمثلي»[1].

ثُمَّ لازمَ العلَّامةَ «صاعدَ البَغداديَّ»[2] الوافدَ على الأَندلسِ مِنَ المَشرقِ، وكانَ مِنَ العارفينَ بِاللُّغةِ وفُنونِ الأَدبِ والأَخبارِ.

ومِنْ ثمَّ، بَعدَ شُهرَتِهِ عَكفَ «ابن سيده» عَلى السَّماعِ إِلى عَلَّامةِ الأَندلسِ «أَبي عَمرو الطلَمنكيِّ»[3] نَزيلِ قُرطُبَةَ، وذَلكَ عندما وَفدَ عَلى أَهلِ مَرسيَّةَ، اجتَمَعَ بِهِ «ابنُ سيده» بَعدَ

(1) مِنْ مُقدمّةِ كتابِهِ المُحكم.

(2) صاعد البغدادي: هوَ أَبو العلاء صاعد بن حسن البغدادي صاحب كتاب «الفصوص»، وأصله من الموصل. كان عالماً باللّغة والأدب، رحل إلى الأندلس فَأكرمه فيها الأعيان والحكّام. توفي في جزيرة صقليّة سنة 417هـ.

(3) أبو عمرو الطلمنكي: هو أحمد بن محمد المعافري الأندلسي الطلمنكيّ من علماء الأندلس. كان صاحب تصانيف، وكان سيفاً مجرداً على أهل الأهواء والبدع. توفي سنة 420هـ.

أَنْ قَدَّمَهُ أَهلُ مرسيَّةَ إِليهِ.

رَوَى «ياقوتُ الحمويُّ» في «مُعجمِ الأُدباءِ»، و«ابنُ بَشكوال» في كتابِهِ «الصِّلةِ في تاريخِ أَئمَّةِ الأَندلسِ» عَنْ أَبي عمرو الطلمنكي قالَ: دَخلتُ مرسيَّةَ، فَتَشَبَّثَ بي أَهلُها لِيَسمعوا عَنِّي غريبَ المُصنَّفِ، فَقُلتُ لَهُمْ: انظروا إِليَّ مَنْ يَقرأُ لَكُمْ، وأُمسكُ أَنا كتابي؟ فَأَتَوا بِرجلٍ أَعمَى يُعرَفُ بِابنِ سيده، فَقرأَهُ مِنْ أَوَّلِهِ إِلى آخرِهِ، فَعجبْتُ مِنْ حِفظِهِ، وكانَ أَعمى بنَ أَعمَى.

وكانَ الطّلمَنكيُّ إِماماً في القِراءاتِ، ثِقةً في رِوايَةِ اللُّغةِ، مُفسِّراً مُحدِّثاً، مَشهوراً بِالوَرعِ ومُحارَبةِ البِدعِ.

❁ ❁ ❁

لَمْ يقتَصِرْ طَلبُ «ابنِ سيده» لِلعلمِ عِنَدَ حَدِّ مُطالَعَتِهِ، أَو حَدِّ سماعِهِ لِلعُلماءِ الَّذِيْنَ أَخذ عَنهُمْ، وإِنَّما رَحلَ وطافَ ونزلَ في بِلادِ المَغربِ ومِصرَ وبِلادِ المَشرقِ العربيِّ أَثناءَ قَصدِهِ لِزيارةِ الأَماكنِ المُقدَّسةِ في مَكَّةَ والمَدينةِ المُنوَّرةِ، وجلسَ بَعضَ الوَقتِ إِلى عُلماءِ المُدنِ الَّتي زارَها ونزلَ فيها، فَسَمِعَ مِنهُمْ، وأَتحفَ عَقلَهُ مِنْ عُلومِهِمْ ومَعارِفِهِمْ.

يَذكُرُ غيرُ واحدٍ مِنَ المُؤرِّخينَ: إِنَّ «ابن سيده» عادَ مِنْ هَذِهِ الرِّحلَةِ الَّتي دامَتْ أَكثرَ مِنْ سَنتينِ بِعلمٍ وافرٍ، ومعرِفَةٍ جَمَّةٍ وعَظيمةٍ، إِذْ تَسَنَّى لَهُ السَّماعُ إِلى عُلماءِ العالمِ العربيِّ والإِسلاميِّ عَنْ قُربٍ، والاغتراف مِنْ علمِهِمْ عَنْ كَثبٍ.

وبَعدَ ذَلِكَ مَكثَ في الأَندلسِ مُتَفرِّغاً لِتَعليمِ النَّاسِ، ونَشرِ ما في مَكنوزِ عَقلِهِ مِنْ عُلومٍ

ومَعارفَ، مُتَنَقِّلاً بينَ مَدينَتي مَرسيَّةَ ودانيَّةَ، وصارَ أَحدَ خاصَّةِ الأَميرِ «أَبي الجيشِ مُجاهدِ بنِ عبدِ اللهِ العامريِّ». ثُمَّ عِندَما آلَتِ الأمورُ مِنْ بَعدِهِ إِلى خَليفَتِهِ الأَميرِ «ابنِ المُوَفَّقِ» حَصلَتْ لَهُ مَعَهُ نَبوةٌ ومُجافاةٌ، فَهربَ مِنهُ، وتَوارَى عَنْ أَنظارِهِ، ولَكِنَّ «ابنَ سيده» ما لَبثَ أَنْ عادَ إِلى عَهدِهِ الأَوَّلِ مَعهُ، وأرسلَ لابن المُوفَّقِ قَصيدةً يَعتذرُ إِليهِ فيها عَمَّا وَقعَ مِنهُ مِنْ جَفاءٍ واعتزالٍ، فَلَما طَرقَتِ القَصيدةُ سَمعَ «ابنُ المُوفَّقِ» راقَتْ نَفسُهُ، ورَضيَ عَنِ «ابنِ سيده» فَرجعَ إِليهِ ولزمَ مجلسَهُ مِنْ جَديدٍ، وكانَ مِنَ القَصيدةِ المَذكورةِ الأَبياتُ التَّاليَةُ كما ذَكرَها ياقوتُ الحمويُّ في مُعجمِ الأُدباءِ:

أَلا هَلْ إِلى تَقبيلِ راحتِكَ اليُمنَى ... سبيلٌ فَإِنَّ الأَمنَ في ذَلكَ واليُمْنا
ضَحَيّتُ فَهلْ في بَردِ ظِلِّكَ نومةٌ ... لِذي كَبِدٍ حَرَّى وذي مُقلَةٍ وسَنا
غَريبٌ نَأَى أَهلوهُ عَنْهُ وشَفَّهُ ... هواهُمْ فَأَمسَى لا يقرُّ ولا يَهنا
إِذا مِيْتَةٌ أَرضَتْكَ عَنَّا فَهاتِها ... حبيبٌ إِلينا ما رَضِيتَ بِهِ عَنَّا

❋ ❋ ❋

يُؤخَذُ عَلى «ابن سيده» عدَّةُ أُمورٍ، ولَكِنَّ هَذِهِ المَآخِذَ لا تُقلِّلُ مِنْ مَنزلَتِهِ العلميَّةِ، ولا تَحطُّ مِنْ قَدرِ كونِهِ مِنْ أَعلامِ الأُمَّةِ؛ إِذْ يَرَى عُلماءُ النَّفسِ أَنَّ طباعَ ذَوي العاهاتِ لا تَخلو مِنَ التَّمرُّدِ عَلى الواقعِ، أَو التَّعمُّدِ في مُجافاةِ أَقرانِهِمْ أَو اعتزالِهِمْ، خُروجاً عَنِ المَألوفِ، وتَعويضاً لِما يَشعرونَ بِهِ في حَنايا أَنفُسِهِمْ مِنْ نَقصٍ أَو حَرجٍ.

ومِمَّا أَخذَهُ المُؤَرِّخُونَ عليهِ:

أولاً: إنَّهُ كانَ يُسرِفُ في اعتدادهِ بِنَفسِهِ إلى حَدِّ المُغالاةِ والعُجبِ والتَّكبرِ المَذمومِ، فَيذكرُ عُلوَّ شَأنِهِ، وارتفاعَ مكانَتِهِ، ويُلصِقُ الجهلَ بِمُعاصريهِ مِنْ أَئمَّةِ اللُّغةِ، ويُعيبُ عَلى الدَّهرِ جَمعَهُ بِهِمْ وجَهلَهُمْ فَضلَهُ، وقَدْ مَرَّ مَعَنا قَولُهُ: «وإنْ كُنتُ بينَ حُثالَةٍ جَهلَتْ فَضلي وأَساءَ الدَّهرُ في جَمعِهِمْ بِمثلي».

لَكِنَّنا نُلاحظُ أَنَّهُ يُقَدِّمُ لِنَفسِهِ الأَعذارَ الَّتِي جَعلَتْهُ يَنأَى هذا المَنأَى في مُقدِّمةِ كتابِهِ «المُحكم»، ويُبَرِّرُ هَفواته بِما وَقعَ بِهِ العُلماءُ الأَوَّلونَ فَيقولُ: «وإذا كانَ المُنفردونَ لِكتابَةِ اللّغةِ وتَكميشِها واحتطابِها وتَقميشِها، كَأَبي عُبيدةَ والأَصمعيِّ قَدْ غَلطوا في بَعضِ ما دَوَّنوا، فَأَنا أَحرَى بِذَلِكَ؛ إذْ هُمْ جاوروا أَهلَ الباديَةِ، وأَطالوا احتلابَ الإبلِ النَّابيَةِ»، ثُمَّ يَقولُ: «ولا أُنكرُ في كُلِّ ذَلِكَ أَنْ تَختَلَّ قَضيَّةٌ مِنْ خَمسَةِ آلافٍ، أَو حَرفٌ مِنْ حروفٍ عَديدةٍ أَضعافٍ».

ثانياً: وأَخذَ عليهِ بَعضُ المُؤَرِّخين مِنْ مُعاصريهِ، أَنَّهُ كانَ شُعوبياً يُفَضِّلُ العَجمَ عَلى العربِ، ولَمْ يَذكروا، أَو يُعلِّلوا لَنا سَببَ هذا التَّفضيلِ، أَو سَببَ هذا المروقِ عَنِ الاعتزازِ بِالعروبَةِ، فَقَدْ قالَ اليسعُ بنُ حَزمٍ[1] عَنِ «ابنِ سيده»: «وكانَ شُعوبياً يُفَضِّلُ العَجمَ عَلى العربِ».

---

(1) اليسع بن حزم: هو أَبو يَحيَى اليسع بن عيسَى بن حزم بن عبد الله الغافقي، وأصله من مدينة جيان في الأندلس، كانَ عالماً مؤرّخاً، رحل إلى مصر ثمَّ عاد إلى الأَندلس، وكتب لبعض الأمراء في شرق الأندلس، ولَه تأليف أَسماه المُعرّب في تاريخ أهل المَغربِ. توفي سنة 575هـ.

ثالثاً: كما أَخذَ عليهِ البَعضُ أَنَّهُ وَقعَ في كَثيرٍ مِنَ الأَغلاطِ الثَّقيلَةِ والقاتلَةِ ـ كما يُقالُ ـ الَّتِي تُخرجُهُ عَنْ سَواءِ الفَهمِ، أَعظم مِنَ الأَغلاطِ الَّتِي عابَ بِها غيرَهُ مِنَ العُلماءِ والأَئِمَّةِ المُصَنِّفينَ، فَقَدْ حَطَّ عليهِ «أَبو زَيدٍ السُّهيلي» في كتابِهِ «الرَّوضِ الأُنُفِ» قالَ: «تَعثَّرَ في «المُحكمِ» وغيرِهِ عَثراتٍ يَدمَى مِنها الأَظلُّ، ويُدحضُ دَحضاتٍ تُخرِجُهُ إِلى سَبيلِ مِنْ ضَلَّ، حَتَّى إِنَّهُ قالَ في الجِمارِ: هيَ الَّتِي تُرمَى بِعرَفَةَ[1].

وقالَ فيهِ «أَبو عَمرو بنُ الصَّلاحِ» المُؤرِّخُ المَشهورُ: «أَضَرَّتْ بِهِ ضِرارَتُهُ»[2].

❁ ❁ ❁

ولَكِنْ عَلى الرَّغمِ مِنْ تِلكَ المَثالبِ الَّتِي أُخذِتْ عَلى «ابن سيده» نَرَى بَعضَ المُؤرِّخينَ، يَعدونَهُ أَحدَ أَقطابِ العلمِ الَّذِيْنَ لا يُنكرُ فَضلُهُمْ بِما قَدَّموهُ مِنْ جهودٍ ضَنينَةٍ خِدمةً لِلعربيَّةِ سَيدَةِ اللُّغاتِ فَوقَ ظَهرِ البسيطَةِ، فَقَدْ قالَ عَنهُ مُعاصرُهُ «الحُميديُّ» في كتابِهِ «جَذوةِ القَبسِ» ـ وقَدِ التَقَى بِهِ وجالسَهُ في الأَندلسِ ـ: «إِمامٌ في اللُّغةِ والعربيَّةِ حافظٌ لَهُما، على أَنَّهُ كانَ ضَريراً قَدْ جمعَ في ذَلكَ جُموعاً، ولَهُ معَ ذَلكَ في الشِّعرِ حَظٌّ وتَصرُّفٌ».

وقالَ عَنهُ «الصَّفديُّ» في كتابِهِ «الوافي بِالوَفيَّاتِ»: «وكانَ معَ تَوفُّرِهِ في علومِ العربيَّةِ مُتوفِّراً عَلى عُلومِ الحكمةِ، وأَلَّفَ فيها تَواليفَ».

وكانَ أُسلوبُهُ في الكتابَةِ والتأليفِ والتَّصنيفِ يُشبِهُ إِلى حَدٍّ كبيرٍ أُسلوبَ الحُكماءِ

---

(1) أَي يَرميها الحاجُّ عَلَى جَبلِ عَرفاتٍ، والأَصحُّ أَنَّها جَمراتُ العقبة تُرمَى في مِنَى أَيَّامَ التَّشريقِ.

(2) أي أَضرَّتْ بِهِ العيوبُ الَّتِي التمسَها لِغيرِهِ، ووَقعَ فيها ذاتها في مُصنَّفاتِهِ.

والمُتقدمينَ مِنْ أَهلِ المَنطقِ والفَلسفَةِ والحكمةِ. وقَدْ شَبَّه البَعضُ مُقدِّمَتَهُ في كتابِهِ «المُحكم» بِكلامِ الحُكماءِ. قالَ فيهِ «ابنُ قاضي شهبة» في طَبقاتِهِ: «ومَنْ وقفَ عَلى خُطبَةِ كتابِ المُحكمِ عَلِمَ أَنَّهُ مِنْ أَربابِ العُلومِ العقليَّةِ، وكتبَ خُطبَةَ كتابٍ في اللُّغةِ إِنَّما تَصلحُ أَنْ تكونَ خُطبَةً لِكتابِ الشِّفاءِ لابن سينا».

كَما قيلَ عَنْهُ عَلَى تَبَحُّرِهِ بِاللُّغَةِ والنَّحوِ: «كانَ كثيرَ العِنايَةِ بِعلمِ المَنطقِ، وقَدْ تَأَثَّرَ في ذَلكَ بِمذهبِ العالمِ الكبيرِ، والمَنطقيِّ الفيلسوفِ «يونسَ بنِ مَتَّى»، وأَثرُ المَنطقِ واضحٌ في مُؤلَّفاتِهِ ومُصنَّفاتِهِ، وبِشكلٍ خاصٍّ في كتابيهِ «المُخصَّصِ» و«المُحكمِ»».

ولابنِ سيده مُؤلَّفاتٌ ومُصنَّفاتٌ كثيرةٌ في اللُّغةِ والنَّحوِ والعَروضِ والشِّعرِ والمَنطقِ، مِنها ما وَصلَ إِلينا، ومِنها ما ضاعَ واندثَرَ معَ مرورِ الأَيامِ، وكُتُبُهُ الَّتِي وَصلَتْ إِلينا هيَ:

1 ـ شَرحُ مشكلِ شعرِ المُتَنبي.

2 ـ المحكمُ: وهوَ مُعجمٌ لُغويٌّ كبيرٌ في (18) جزء، وذَهبَ فيهِ مذهبَ اللُّغويينَ قبلهُ في تَرتيبهِ عَلى حروفِ الهجاءِ، وفي ترتيبِ الحروفِ حسبَ المخارجِ وترتيبِ المَوادِّ طبقاً لَها، وأَيضاً في سَوقِ الشَّواهدِ وتَرتيبِها.

3 ـ المُخصَّصُ: ويَتألَّفُ مِنْ (17) جزءاً، وجمعَ فيهِ تَفاريقَ ما سَمعَ وما وَعَى مِنْ كُتبِ المُتقدمينَ، وقَسَّمَهُ إِلَى عدَّةِ أَبوابٍ، ويَشتملُ هذا الكتابُ ـ إِضافةً إِلى الأَبحاثِ اللُّغويَّةِ ـ عَلى أَبحاثٍ زراعيَّةٍ هامَّةٍ تَتعلَّقُ بِموضوعاتِ الأَرضِ الزِّراعيَّةِ وعواملِ خُصوبتِها

وجَدبِها، وأَنواعِ تُربَتِها مِنْ صحَّةٍ ووَبالٍ، وكَذلِكَ أَبوابٍ في النَّباتاتِ والشَّجرِ والثِّمارِ وأَنواعِها وعُيوبِها.

توفي «ابنُ سيده» سنةَ (458) هجريَّةً، وقَدْ بلغَ ستينَ سنةً أَو نَحوَها.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ بِمَنْ يُذَكِّرُنا ابن سيده في العصرِ الحديثِ؟

2 ـ ما سبَبُ قوَّةِ بَصيرةِ العُميانِ؟

3 ـ أَينَ ولدَ ابن سيده، ومَنْ هُمْ شيوخُهُ ومُعلِّموهُ؟

4 ـ هَلِ اقتصَرَ طلبُ ابنِ سيده للعلمِ عند حدِّ المُطالعةِ أَو سماعِ العُلماءِ، كيفَ؟

5 ـ عَدِّدِ المَآخذَ الَّتِي تُؤخذُ عَلى ابن سيده.

6 ـ ماذا قالَ أَبو عَمرو بنُ الصَّلاحِ المُؤرِّخُ المَشهورُ في ابن سيده؟

7 ـ كيفَ كانَ أُسلوبُ ابن سيده في الكتابَةِ والتأليفِ؟

8 ـ اذكرْ مؤلَّفاتِ ابنِ سيده الَّتِي وَصلَتْ إِلينا.

ابن دريد
أشعر العلماء
(223 ـ 321هـ)

ابنُ دُريدٍ، أَشعرُ العُلماءِ، وأَعلمُ الشُّعراءِ، اللُّغويُّ الحاذقُ، والشَّاعرُ المُكثرُ مِنْ نَظمِ الشِّعرِ، وصاحبُ قَصيدةِ «المقصورةِ» الَّتِي تُعتبرُ مِنْ كُبرياتِ قَصائِدِ الشِّعرِ العربيِّ قَديماً وحديثاً، واحدٌ مِنْ عُلماءِ العربِ القُدماءِ الَّذِيْنَ عاشوا في العصرِ العبَّاسيِّ، والَّذِيْنَ لا يُدركُ لَهُمْ أَمدٌ في اللُّغةِ والأَدبِ.

يُعتبرُ «ابنُ دُريدٍ» مِنْ أَهمِّ العُلماءِ الرُّوادِ في مَدرسَةِ البَصرةِ في القَرنِ الثَّالثِ الهجريِّ، ومِنْ أَهمِّ عُلماءِ اللُّغةِ المُقدَّمينَ في الأَشعارِ والأَنسابِ بَعدَ عَصرِ «الأَصمَعيِّ»، وما عَرف تاريخُ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابُها مِنَ العُلماءِ المُقدَّمينَ في الأَشعارِ والأَنسابِ والأَخبارِ والنَّوادرِ كَالأَصمعيِّ، ثُمَّ ابنِ دريدٍ مِنْ بَعدِهِ، وذَلِكَ لِما تَمتَّعَ بِهِ هَذانِ العالمانِ مِنْ علمٍ جَمٍّ، وفكرٍ موسوعيٍّ يُمثِّلُ ثَقافَةَ العصرِ الَّذِي عاشا فيهِ، ولِما تَحلَّيا بِهِ مِنْ صِفاتٍ وخِلالٍ حَميدةٍ دَفَعتْهُما نَحوَ طَلبِ العلمِ وتَحصيلِهِ، ومِنْ ثَمَّ إفادَةِ النَّاسِ بِهِ، بِورعٍ وإِخلاصٍ شَديدينِ.

فَلَقَدْ أَغنَى «ابنُ دريدٍ» اللُّغةَ العربيَّةَ وعُلومَها وآدابَها بِما وَضَعَهُ مِنْ مُؤلَّفاتٍ ومُصَنَّفاتٍ

ضَخمةٍ ومُفيدةٍ، اعْتبرَتْ مِنْ أَهَمِّ مَصادرِ اللُّغةِ ومَراجعِ عُلومِها وفُنونِها، ويَأتي في مُقدِّمةِ هَذِهِ المُؤلَّفاتِ والمُصنَّفاتِ مُعجَمُهُ الشَّهيرُ بِـ «الجَمهرَةِ» الَّذِي هوَ مِنْ أَضخمِ مَعاجمِ اللُّغةِ العربيَّةِ وأَقدمِها، وأذخرِها حَشداً بِالمعارفِ والمَعلوماتِ، بِما حَواهُ مِنْ مادَّةٍ لُغويَةٍ ثَريَّةٍ بِالشَّواهدِ المُساقَةِ مِنْ كَلامِ العربِ وأَشعارِهِمْ، ومِنْ أَلفاظِ البيانِ الإِلهيِّ في التَّنزيلِ الحكيمِ.

كما كانَ «ابنُ دريدٍ» مِنْ زُمرةِ العُلماءِ الرَّاسخينَ في العلمِ الَّذِيْنَ يُصدِّرونَ علمَهُمْ ويَبثونَهُ بينَ النَّاسِ، عَنْ وَعْيٍ وإِدراكٍ، وحجَّةٍ مُثبَتةٍ بِالأَدلَّةِ والبَراهينِ، فَكانَ لا يُطلقُ علمَهُ، أَو يُعلنُ رأْيَهُ في مَسأَلةٍ تُعرضُ عَليهِ، إِلَّا بَعدَ التَّأَكدِ مِنْ صِحَّتِهِ، وإِيرادِ دَليلِهِ مِنْ كلامِ العربِ.

كَما كانَ «ابنُ دريدٍ» مِنْ كُرماءِ العربِ المَشهورينَ، الَّذِيْنَ يَبسطونَ يَدَهُمْ ويَجودونَ بِفضولِ مالِهِمْ، كَما يَجودونَ بِعلمِهِمْ ويَبذلونَهُ مِنْ غيرِ بخلٍ أَو تَقتيرٍ، فَكانَ يُقري الضَّيفَ، ويَتكرَّمُ عَلى السَّائِلِ، ويُعينُ المُحتاجَ عَلى نَوائِبِ الدَّهرِ، ولِهذا نَعاهُ أَحدُ الشُّعراءِ مِنْ مُعاصريهِ عندَ موتِهِ بِقولِهِ:

فَـقَـدْتُ بِـابـنِ دريـدٍ كُـلَّ فـائِـدةٍ ... لَـمَّـا غَـدَا ثـالـثَ الأَحـجـارِ والتُّـرَبِ

وكُـنـتُ أَبـكـي لِـفـقـدِ الـجـودِ مُـنـفَـرِداً ... فَـصـرتُ أَبـكـي لِـفَـقـدِ الـجـودِ والأَدبِ

فَمَنْ هوَ «ابنُ دريدٍ»، وأَينَ ولِدَ وعاشَ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

❁ ❁ ❁

هوَ أَبو بَكرٍ محمَّدُ بنُ الحسنِ بنِ دريدِ بنِ عَتاهيَةَ الأَزديُّ البَصريُّ، مِنْ نَسلِ عمرو بنِ فَهمٍ الزَّهرانيِّ الَّذِي يَنتهي نسبُهُ إِلى «الأَزدِ بنِ الغَوثِ» الَّذِي نزلَ قومُهُ أَرضَ عُمانَ فَأطلقَ عليهِمْ منذُ القَديمِ «أَزدَ عُمانَ». وقَدْ أُطلقَ عَلى أَبي بكرٍ مُحمَّدِ بنِ الحسنِ لَقبُ «ابنِ دريدٍ» نسبَةً إِلى جَدِّهِ دريدٍ، و«الأَزديُّ» نسبةً إِلى قَومِهِ الأَزديِّينَ، و«البَصريُّ» نسبةً إِلى مدينةِ البَصرةِ مَسقطِ رأسِهِ، ومَكانِ نَشأَتِهِ وتَعلُّمِهِ، ولِكونِهِ أَحدَ أَقطابِ مدرسَةِ البَصرةِ في اللُّغةِ والرِّوايَةِ والشِّعرِ.

ولِدَ «ابنُ دريدٍ الأَزديُّ» في مَدينةِ البصرةِ سنةَ (223) هجريَّةً الموافقة لِسنةِ (837) ميلاديَّةً، ونَشأَ وتَرعرَعَ فيها، وتَربَّى في بيتِ عِزٍّ وعِلمٍ وأَدبٍ، حيثُ كانَ أَبوهُ وَجيهاً في قَومِهِ، كَما أَشرفَ عَلى تَربيَتِهِ وتَهذيبِهِ وتَعليمِهِ في طفولتِهِ عَمُّهُ «الحُسينُ بنُ دريدٍ» الَّذِي كانَ مِنَ الحُفَّاظِ، ومِنْ رِجالِ العلمِ الَّذِيْنَ لَمْ يُحقِّقوا شُهرةً واسعةً بينَ العُلماءِ في البصرةِ، ويُقالُ: إِنَّ الفضلَ الأَكبرَ في تَعلُّمِهِ وتَمكُّنِهِ مِنَ العلمِ يَعودُ إِلى عَمِّهِ «الحُسينِ» وخاصَّةً عندما صَحبَهُ إِلى عُمانَ وأَقامَ معهُ هُناكَ ما يُقاربُ (12) عاماً مُتتاليَةً، ثُمَّ يَعودُ الفَضلُ مِنْ بَعدِهِ إِلى أَوَّلِ شُيوخِهِ في البَصرةِ الَّذِيْنَ أَخذَ عَنهُمْ، وهوَ «أَبو عُثمانَ سَعيدُ بنُ هارون الأَشنانديُّ»[1]، ثُمَّ سَمعَ إِلَى: «أَبي حاتمٍ السّجستانيِّ»[2]، . . . . . .

(1) أَبو عُثمانَ سَعيدُ بنُ هارون الأَشنانديّ: نسبة إلى أَشنان، محلّة في بغداد. كان عالماً لغوياً من كبار علماء البصرة، وله من التصانيف كتاب معاني الشعر، يرويه عنه ابن دريد. توفي سنة 288هـ.

(2) أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان بن يزيد الجشمي السجستاني النحوي اللغوي المقرئ، نزيل البصرة وعالمها، أخذ عن الأخفش والأصمعي، وأخذ عنه المبرد وابن دريد. توفي في الحرم سنة 248هـ.

و«أَبي الفَضلِ الرّياشيِّ»[1] الَّلذَينِ كانا أَشهرَ عُلماءِ البَصرةِ في عَصرِهِ، كما سمعَ إِلى العديدِ مِنْ علماءِ وشيوخِ البصرةِ غيرِهِمْ.

كَما أَخذَ العلمَ عَن «ابنِ دريدٍ» عَددٌ كبيرٌ مِنَ العُلماءِ المَشهورينَ الَّذِيْنَ تَميَّزوا بِالبَحثِ والتَّصنيفِ والتَّأليفِ، وماتزالُ مُصنَّفاتُهُمْ مِنْ أَهمِ مصادرِ عُلومِ اللُّغةِ، ومِنْ أَهمِّ مَراجعها الأَمينةِ، والمُعتمدةِ عِندَ العربِ، وفي مُقدِّمتهِمْ: أَبو الفرجِ الأَصفهانيُّ صاحبُ كتابِ «الأَغاني»، وأَبو عليٍّ القالي صاحبُ «الأَمالي»، وابنُ بِشرٍ الآمديُّ صاحبُ كتابِ «المُوازنةِ»، وابن خالويه، أَبو سعيدٍ السّيرافيُّ، والمرزبانيُّ صاحب كتابِ «مُعجمِ الشُّعراءِ»، والوزيرُ الشَهيرُ ابنُ مُقلَةَ، وغيرُهُمْ.

❋ ❋ ❋

ولَمْ تَكَدْ شهرةُ «ابنِ دريدٍ» تَنتشرُ في البصرةِ، ويَسمعُ بِها النَّاسُ، حَتَّى كَتبَ عليهِ القَدرُ مُغادرةَ البَصرةِ إِلى أَرضِ عُمانَ بِصُحبَةِ عَمِّهِ، فِراراً مِنَ الأَحوالِ المُضطربَةِ، ومِنْ يَدِ العسفِ الَّتِي طالَتِ العُلماءَ والأَعيانَ عَقبَ استفحالِ أَمرِ «فتنةِ الزّنجِ»[2] في البصرةِ سنةَ

(1) أَبو الفضل العباس بن الفرج الرياشي النحوي اللغوي، كان عالماً راوية عارفاً بأيام العرب، أخذ عنه الأصمعي. مات مقتولاً في البصرة أيام فتنة الزنج سنة 257هـ.

(2) ثورة الزنج أو فتنة الزنج كما يقال: قادها علي بن محمد بن عبد الرحيم الذّي ادّعَى نسبه إلى ولد الإمام الحسين بن علي بن أبي طالب فالتفّ حوله العبيد والسود والزنج والموالي والخدم من عوام الناس الفقراء الذين لحقهم جور السلطان والأغنياء، وهزموا جند الخليفة في البصرة واستولوا عليها من عام 245 إلى عام 277هـ، حيث قضي عليهِمْ وقُتلَ قائدهم علي بن محمد في أَواخرِ سنة 277هـ.

(255) هجريَّةً.

وذَكرَ المُؤَرِّخُونَ: إنَّ «ابنَ دريدٍ» أَقامَ (12) سنةً في عُمانَ بينَ قَومِهِ الأَزديِّينَ رَيثَما هَدأتِ الأَحوالُ في البَصرةِ، وقُضيَ تَماماً عَلى الفتنةِ وأصحابِها، فَطفِقَ عائِداً إلى البَصرةِ يَحدوهُ الشَّوقُ والحنينُ إِليها؛ لأَنَّ البصرةَ كانَتْ مَعقلَ العلمِ والعُلماءِ، ولأَهميَّتِها العلميّةِ والدينيَّةِ والسياسيَّةِ أُطلقَ عَليها «قبَّةُ الإِسلامِ» في ذَلكَ الحينِ.

ورُبَّما كانَ لِإِقامةِ «ابنِ دريدٍ» أَثرُها الكبيرُ في شُهرتِهِ، وإِتقانِهِ لِلُغةِ العربِ، ولِتلقيهِ وحفظِهِ لِشعرِ العربِ؛ لأَنَّ الأَزديِّينَ سُكانَ عُمانَ كانوا مِنْ أَفصحِ العربِ لِساناً، ومِنْ أَكثرِهِمْ حفظاً ورِوايَةً لأَشعارِ العربِ وحكمَتِهِمْ، ومِنْ أَصحِّهِمْ لُغةً كما ذَكرَ عَنهُمُ المُؤَرِّخُونَ ذَلكَ قَديماً، ورُبَّما انطلَقَتْ شهرَتُهُ تَجوبُ الآفاقَ مِنْ هُناكَ، فَقصدَهُ النَّاسُ مِن البُلدانِ المُجاورَةِ يسمعونَ مِنهُ، ويَتعلَّمونَ عَلى يَديهِ.

وبَعدَ رُجوعِهِ إِلى البَصرةِ، لَمْ يَستقِرَّ لَهُ المقامُ فيها، وإِنَّما صارَ يَتنقَّلُ بينَ بَغدادَ وبينَ بِلادِ فارس والأَهوازِ وعُمانَ، بِناءً عَلى دَعواتِ الولاةِ وكبارِ الأَعيانِ والعُلماءِ، وحُبّاً لِلمعرفَةِ والاطِّلاعِ، فَذكرَ المُؤَرِّخُونَ أَنَّهُ فورَ رُجوعِهِ إِلى البَصرةِ تَلقَّى دعوةً مِنْ والي خُراسانَ في عهدِ الخليفةِ المُقتدرِ بِاللهِ العباسيِّ «عبدِ اللهِ بنِ مُحمَّدٍ بنِ ميكال» لِتأَديبِ ولدِهِ أَبي العبَّاسِ «إسماعيلَ بنِ عبدِ اللهِ»، فَطابَتِ الإِقامَةُ لَهُ في نيسابورَ عاصمةِ إِقليمِ خُراسانَ، وتَقلَّدَ مَنصبَ رئيسِ الدِّيوانِ هُناكَ، فكانَ لا يصدرُ أَمراً أَو فَرماناً حُكوميّاً إِلَّا مِنْ تَحتِ إِشرافِهِ وموافَقتِهِ، وسارَ في النَّاسِ سيرةً حَسنةً، فَكانَ يَجمعُ بينَ وَظيفَتِهِ وبينَ تَعليمِهِ لِلنَّاسِ، وكَذلِكَ انْشغالهِ في البَحثِ والتأليفِ والتَّصنيفِ، فَوضَعَ أُرجوزَتَهُ الشِّعريَّةَ

المَشهورةَ والمُسمّاةَ بِـ «المَقصورةِ» يَذكرُ فيها مناقبَ العربِ وأَخبارَهُمْ ويَمدحُ فيها الوالي «ابنَ ميكالَ» وابنَهُ أَبا العبَّاسِ إسماعيلَ، ثُمَّ وَضعَ مُعجمَهُ الشَّهيرَ بِـ «الجمهرةِ» بناءً عَلى طلبِ الوالي «ابنِ ميكالَ».

يَحرصُ «ابنُ دريدٍ» كُلّ الحرصِ عَلى إِلقائِهِ العلمَ لِمَنْ هوَ جادٌّ في التَّعلُّمِ والسَّماعِ، فَكانَ لا يَتحدَّثُ إِلَّا إِذا وجدَ آذاناً صاغيَةً بِكُلِّ وَعيٍ وانتباهٍ إِليهِ، فَيَروي عَنهُ ابنُ بَشْكوالَ في كتابِهِ «الصِّلةِ في تاريخِ الأَندلسِ» بِهذا الصَّدَدِ: إِنَّهُ لَمَّا نَزلَ في مدينةِ «سيرافَ» أَثناءَ تَطوافِهِ في بِلادِ فارس، سَأَلَهُ بَعضُ النَّاسِ لِلقراءَةِ عليهِ، فَأَبَى ذَلِكَ إِذْ لَمْ يَرَ هُنالِكَ مَنْ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَجلسَ لَهُ، فَكتبَ هذِهِ الأَبياتَ وعَلَّقَها في قبلَةِ مَسجدِهِمْ:

قالوا: نراكَ تُطيلُ الصَّمتَ؟ قلتُ لَهُمْ: ما طولُ صَمتي مِنْ عَيٍّ ولا خَرسِ
لَكنَّهُ، أَجملُ الأَمرينِ منزلَةً عندي، وأَحسنُ لي مِنْ مَنطقٍ شَكِسِ
قالوا: نَراكَ أَديباً لستَ ذا خَطلٍ؟ قلتُ: هاتوا أَروني، وجهَ مُقْتَبِسِ
لو شِئتُ قلتُ لَكِنْ لا أَرَى أَحداً سَاوَى الكلامَ فَأُعطيهِ مَدَى النَّفسِ
أَأَنشُرُ البرَّ في ما ليسَ يَعرفُهُ وأَنثُرُ الدُّرَّ لِلعُميانِ في الغَلسِ؟

❋ ❋ ❋

يَتمتَّعُ «ابنُ دريدٍ» بِذاكرةٍ قَويَّةٍ، ومقدرةٍ كبيرةٍ عَلى الحفظِ، وبِفطنةٍ واسعةٍ في قولِ الشِّعرِ وإِطلاقِهِ عَلَى السَّجيَّةِ، فَكانَ شاعراً مُجيداً ومُكثراً مِنْهُ في المُناسباتِ والملمّاتِ والأَحداثِ، أَو كُلَّما أَفرَحهُ أَو حَزبَهُ أَمرٌ ما، وكانَ يُقرأُ عليهِ دواوينُ الشِّعرِ فيُسابِقُ إِلَى

إتمامِ حِفظِهِ لَها، ولِهذا قالَ عَنهُ تلميذُهُ المُؤرِّخُ والأَديبُ «ابنُ خالويه»: «ابنُ دريدٍ أَعلمُ الشُّعراءِ، وأَشعرُ العُلماءِ»[1].

وذَكرَ المَسعوديُّ: «إنَّ «ابنَ دريدٍ» كانَ إمامَ عَصرِهِ في اللُّغةِ والأَدبِ، عبقريّاً، برعَ في الشِّعرِ، ورَوى مِنْ أَشعارِ العربِ وأَخبارِهِمْ ما لَمْ يَروِهِ كثيرٌ مِنْ أَهلِ العلمِ، وكانَ حسنَ القريحةِ، وهوَ الَّذِي انتَهَتْ إِليهِ لُغةُ البَصريينَ، وقامَ مقامَ الخليلِ بنِ أَحمدَ في اللُّغةِ، وقيلَ: إِنَّهُ تَصدَّرَ في العلمِ ستينَ سنةً، وكما قيلَ: إِنَّهُ ما ازدحمَ العلمُ والشِّعرُ في صَدرِ أَحدٍ ازدحامَهُما في صَدرِ خَلفٍ الأَحمرِ[2] و«ابنِ دريدٍ»»[3].

ولَما ماتَ العالمُ والفقيهُ والإِمامُ «محمَّدُ بنُ إِدريسٍ الشَّافعيُّ»، تَركَ موتُهُ أَثراً عَميقاً في نفسِ «ابنِ دريدٍ» فَرثاهُ بِقصيدةٍ يُعدِّدُ فيها مناقبَ الإِمامِ الشَّافعيِّ، جاءَ فيها:

أَلَمْ تَرَ آثارَ ابنِ إدريسَ بعدهُ ... دلايلَةً في المُشكلاتِ لَوامعُ؟
معالِمٌ يَفنَى الدَّهرُ وهيَ خَوالدُ ... وتَنخفضُ الأَعلامُ وهيَ روافعُ
مناهجٌ فيها لِلورَى متَصرِّفُ ... مواردٌ فيها لِلرَّشادِ مشارعُ

وذَكَرَ أَبو حيانَ التَّوحيديُّ في كتابِهِ «البَصائرِ والذَّخائِرِ»، أَنَّ «ابنَ دريدٍ» كتب إلى

---

(1) وفيات الأعيان لابن خلكان، ومعجم الأدباء لياقوت الحموي بتصرفٍ.

(2) خلف الأحمر: هو أبو محرز البصري خلف بن حيان المعروف بالأحمر، سمع من حماد الرّاوية، وكان معلّم أهل البصرة ومعلّم الأصمعي، وله كتاب جبال العرب وديوان شعر رواه له أبو نواس، ت280هـ.

(3) المصدر السابق نفسه.

عليِّ بنِ عيسى بنِ ماهانَ وكانَ أَميراً عَلى بِلادِ فارس في عهدِ الخليفتين الرَّشيدِ والأَمينِ، ولاقَى النَّاس هناكَ عَلى يديهِ جوراً عَظيماً:

أَبا حسنَ والمرءُ يُخلَقُ صورةً ... تُخبرُ عمَّا ضَمَّنَتْهُ الغرائزُ
إِذا كُنتَ لا تُرجَى لِنَفعِ مُعجلٍ ... وأَمرُكَ بينَ الشَّرقِ والغربِ جائزُ
ولَمْ تَكُ يَومَ الحشرِ فينا مُشفِّعاً ... فَرأيُ الَّذِي يَرجوكَ لِلنَّفعِ عاجزُ
عليَّ بنَ عيسَى خيرُ يَوميكَ أَنْ تُرَى ... وفَضلُكَ مَأمولٌ ووَعدُكَ ناجزُ
وإِنِّي لأَخشَى بَعدَ هذا بِأَنْ تُرَى ... وبينَ الَّذِي تَهوَى وبينَكَ حاجزُ

اشْتُهِرَ «ابنُ دريدٍ» بِكرمِهِ وسَخائِهِ، فَكانَ لا يَحبسُ مالاً أَو عَطاءً عَنْ سائِلٍ أَو مُحتاجٍ، ورغمَ ما أَصابَهُ في نيسابورَ وخُرَّاسانَ مِنْ مالٍ وعَطايا وهَدايا مِنِ ابنِ ميكالَ وابنهِ أَبي العبَّاسِ، إِلَّا أَنَّه عادَ مِنْ هُناكَ صفرَ اليَدينِ لا يَملكُ مالاً ولا مَتاعاً، فَأَجرَى عليهِ الخليفَةُ المُقتَدرُ بِاللهِ مُرَتَّباً شَهرياً قَدرهُ خَمسونَ ديناراً حَتَّى وفاتِهِ.

❁ ❁ ❁

عُرِفَ «ابنُ دريدٍ» بِحُبِّهِ الشَّديدِ لِلجَدِّ والمُثابرةِ في البَحثِ والتأليفِ والتَّصنيفِ، وبُعدِهِ عَنِ اللَّهوِ والتَّرفِ، فَرَوَى ياقوتُ الحمويُّ في معجمِ الأُدباءِ عَنِ الأَميرِ أَبي النَّصرِ بنِ الميكالي قالَ: تَذاكرنا المُنتزهاتِ يوماً وابنُ دريدٍ حاضرٌ فقالَ بَعضُهُمْ: أَنزهُ الأَماكنِ غوطةُ دمشقَ، وقالَ آخرونَ: نهرُ الأُبلةِ، وقالَ آخرونَ: بَلْ سغدُ سَمرقَندَ، وقالَ آخرونَ:

بَلْ نَهرُ نَهروانَ، وقالَ آخرونَ: شَعبُ بَوانَ بِأرضِ فارس، وقالَ آخرونَ: بَلْ نوبهار بَلخ، فقالَ ابنُ دريدٍ:

هذِهِ مُنتزهاتُ العيونِ، فَأينَ أَنتُمْ مِنْ مُنتزهاتِ القلوبِ؟

فَقلْنا: وما هيَ يا أَبا بَكرٍ؟

قالَ: كتابُ «عيونِ الأَخبارِ» للقُتيبي، وكتابُ «الزّهرةِ» لأَبي داؤد، وكتابُ «نزهةِ المُشتاقِ» لابنِ أَبي طاهرٍ، ثُمَّ أَنشأَ يَقولُ:

ومَنْ تَكُ نزهتُه قينه وكَأسٌ تُحَتّ وأُخْرى تُصَبّ

فَنزهَتُنا واسْتراحَتُنا تَلاقي العيونِ ودرسُ الكُتب

عَدَّدَ المُؤَرِّخُونَ لَهُ مِنَ المُصنَّفاتِ والمُؤلَّفاتِ (27) كتاباً أَهمُّها وأَشهرُها:

1 ـ ديوانٌ شعريٌّ يَحوي مئةَ قَصيدةٍ، أَشهرُها وأَهمُّها قَصيدةُ «المَقصورةِ» أَنشدها لوالي خُراسانَ ابنِ ميكالَ، وهيَ من روائعِ الشعرِ العربي المَلحميِّ في العصرِ العباسيِّ، وقَدْ قامَ بِشرحِها عَددٌ مِنَ العُلماءِ، وأَشهرُ هذِهِ الشُّروحِ شَرحُ العلَّامةِ النَّحويِّ شَمسِ الدِّينِ المصريِّ المعروفِ بِابنِ الصَّايغِ، وتتألَّفُ مِنْ (265) بيتاً، ومِمَّا قالَهُ فيها الأبياتَ التَّاليَةَ:

مَنْ لَمْ تُفِدْهُ عِبراً أَيَّامُهُ كانَ العَمَى أَولَى بِهِ مِنَ الهُدَى

مَنْ لَمْ يَعظْهُ الدَّهرُ لَمْ يَنفَعْهُ ما راحَ بِهِ الواعظُ يَوماً أَو غَدا

2 ـ كتابُ الجمهرةِ: وهوَ مُعجمٌ كبيرٌ أَملاهُ في بِلادِ فارس ثُمَّ في بَغدادَ، وقَدْ رَتَّبَ فيهِ الأَلفاظَ والكلماتِ تَرتيباً هجائيّاً، وقَسَّمَهُ حسبَ تَقسيماتِ كتابِ العينِ لِلفراهيديِّ، فَبدأَ

بِالثُّنائيِّ ثُمَّ الثُّلاثيِّ ثُمَّ الرُّباعيِّ فَالخُماسيِّ والسُّداسيِّ ومُلحقاتِها، وجمعَ الأَلفاظَ النَّادرةَ في بابٍ مُفرَدٍ، ورَتَّبَها تَرتيباً هجائيّاً أَيضاً، وقَدْ وضِعَتْ عليهِ عدَّةُ شروحٍ أَهمُّها كتابُ شرحِ شواهدِ الجمهرةِ لأَبي العلاءِ المعريِّ، وقَدْ أَودعَ معجمَ الجمهرةِ ابنُ منظورٍ في مُعجمهِ الكبيرِ والشَّهيرِ «لِسانِ العربِ».

3 ـ كتابُ الاشتقاقِ: ذكرَ فيهِ أسماءَ القبائلِ العربيَّةِ وأَعلامَها مرتبَةً تَرتيباً مُعجمياً.

توفيَ ابنُ دريدٍ سنةَ (311) هجريَّةً ودُفنَ في مقبرةِ الخيزرانِ في يَومٍ مَطيرٍ، في اليَومِ الَّذِي ماتَ فيهِ شَيخُ المُعتزلةِ والمُتكلِّمينَ (أَبو عليٍّ الجبَّائيُّ)، فقالَ النَّاسُ:

«اليَومَ ماتَ علمُ اللُّغةِ والكلامِ بِموتِ ابن دريدٍ والجِبائيِّ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا يُعتبرُ «ابنُ دريدٍ»؟

2 ـ لِماذا يُعتبرُ ابنُ دريدٍ والأَصمعيُّ مِنْ أَهمِّ العُلماءِ في تاريخِ اللُّغةِ العربيَّةِ وآدابِها؟

3 ـ إلى مَنْ يُنسبُ ابنُ دريدٍ، ولِماذا لُقبَ بِهذا اللَّقبِ؟

4 ـ مَنْ هُمُ العُلماءُ والشُّيوخُ الَّذِيْنَ أَخذَ عَنهُمُ ابنُ دريدٍ؟

5 ـ ما سَببُ خروجِ ابنِ دريدٍ معَ عَمِّهِ إلى عُمانَ؟

6 ـ لِماذا ذهبَ ابنُ دريدٍ إلى خراسانَ؟

7 ـ ما هيَ أَهمُّ الأَفكارِ الَّتِي وردَتْ في قَصيدةِ المقصورةِ لابنِ دريدٍ؟

8 ـ كيفَ رَتَّبَ ابنُ دريدٍ معجمَ الجمهرةِ، وكيفَ قَسَّمَهُ؟

أبو منصور الأزهري
مهذِّب اللغة
(282 ـ 370هـ)

أبو مَنصورٍ الأزهريُّ، مُهذِّبُ اللُّغةِ، وصاحبُ مُعجمِ «تَهذيبِ اللُّغةِ»، وكَذلكَ صاحبُ التَّصانيفِ المَشهورةِ، عالمُ اللُّغةِ الثَّبتُ الحُجَّةُ، والفَقيهُ الثِّقةُ المُجتهدُ، مِنَ المُتقدِّمينَ الَّذِينَ أَخذوا عَلى عاتِقِهِمْ خِدمةَ اللُّغةِ العربيَّةِ، وحمايَتَها مِنَ التَّصحيفِ والخَطأ واللَّحنِ، ومِنَ الأَلفاظِ الشَّاذَّةِ والدَّخيلةِ، وتَخليصَها مِنَ الشَّوائِبِ الَّتِي عَلقَتْ بِكلماتِها وأَلفاظِها، ولَحقَتْ بِها عَلى أَنَّها مِنَ الكلامِ الَّذِي يَنطقُهُ وتَقولُهُ العربُ.

يُعتبرُ أبو مَنصورٍ الأزهريُّ مِنَ الطَّبقَةِ الثَّالثَةِ لِلمُتقدِّمينَ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ الَّذِينَ يُعزَى إِليهِمُ الفَضلُ الأَكبرُ في حمايَةِ اللُّغةِ العربيَّةِ وعُلومِها مِنَ اللَّحنِ والاندثارِ والضَّياعِ، فَهوَ تلميذُ عالمِ اللُّغةِ الكبيرِ «نفطويه»، وكَذلِكَ عاصرَ أبو مَنصورٍ الأزهريُّ جَهابذةَ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّذِينَ كانوا أَئمَّةً في اللُّغةِ ـ سواءٌ كانوا مِنْ أَصحابِ المدرسةِ البَصريَةِ أَو الكوفيَّةِ ـ وأَخذَ عَنهُمْ وأَخذوا عَنهُ، أَمثالَ: ابنِ دُريدٍ، أَبي إِسحاقَ الزَّجاجِ، وأَبي العبَّاسِ المُبرِّدِ، وأَبي العبَّاسِ ثَعلبٍ، وغيرهمْ.

عاصرَ الأَزْهَريُّ ولازَمَ كِبارَ فُقهاءِ عَصرِهِ، وكَما بَرعَ في علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، برعَ في علمِ الفقهِ وأُصولِهِ، وصارَ مِنْ أَقطابِ المذهبِ الشَّافعيِّ في بغدادَ وفي خُرَّاسانَ، ولِبراعَتِهِ في اللُّغةِ كانَ عمدةَ الفُقهاءِ في تَفسيرِ ما يُغمُّ عليهِمْ مِنَ الأَلفاظِ اللُّغويَةِ المُتَّصلةِ بِالفِقهِ وأُصولِهِ.

وأبو مَنصورٍ الأزهريُّ مَعدودٌ مِنَ العُلماءِ العارفينَ بِعلمِ القراءاتِ القُرآنيَّةِ، فَهوَ عَلَمٌ ثَبتٌ حجَّةٌ فيها أَيضاً، ولَهُ تَصانيفُ هامَّةٌ فيها، عمدَ خِلالَها إِلى تَبسيطِ علمِ القِراءاتِ وتَسهيلِ فَهمِهِ لِلدَّارسينَ، ويُعتبرُ كتابُهُ «مَعاني القِراءاتِ» الَّذِي وَضعَهُ في ذَلكَ الحينِ، مِنْ أَروعِ ما كُتبَ وصُنِّفَ في هذا المِضمارِ، وهوَ مِنْ أَوائِلِ عُلماءِ اللُّغة والتَّفسيرِ الَّذِينَ أَطلقُوا تَسمياتٍ عَلى بَعضِ السُّورِ تَختلفُ عَنْ أَسمائِها في المصحفِ.

كما يُعتبرُ أَوَّلَ مَنْ والفَ بينَ علمِ اللُّغةِ والنَّحوِ، وبينَ عِلمِ القِراءاتِ، وهوَ يَشرحُ وجوهَ القِراءاتِ لآياتِ القُرآنِ الكريمِ، يُبيِّنُ وجوهَ إِعرابِها، ومَعاني كلماتِها ودِلالاتِها، وهوَ مَنهجٌ تَفرَّدَ فيهِ ـ كما قيلَ ـ عَمَّنْ سَبقَهُ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ والتَّفسيرِ والقِراءاتِ.

ومِنَ الأمورِ الَّتِي تَميَّزَ بِها أبو مَنصورٍ الأزهريُّ عَنْ باقي عُلماءِ اللُّغةِ قَبلَهُ أو في عَصرِهِ اهتمامُهُ الكبيرُ بَأسماءِ الأَماكنِ والمُدنِ والجبالِ والقُرَى وما شابَهَها، حيثُ أَوردَ في مُعجمِهِ «تَهذيبِ اللُّغةِ» الكثيرَ مِنْ هذِهِ الأَسماءِ، وتِلكَ ميزةٌ لَمْ يَسبقْهُ إِليها أَحدٌ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ قَبلَهُ.

فَمَنْ هوَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ، وأَينَ عاشَ، ومَنْ شيوخُهُ وتَلامذتُهُ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ هذِهِ الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ أَبو مَنصورٍ مُحمَّدُ بنُ أَحمدَ الأَزهرِ بنِ طلحةَ بنِ نوحٍ بنِ الأَزهرِ بنِ نوحٍ بنِ حاتمٍ بنِ سعيدٍ بنِ عَبدِ الرَّحمنِ الأَزهريُّ، اللُّغويُّ المَعروفُ، الشَّافعيُّ المذهبِ، الهرويُّ المَولدِ. وسُمِّيَ بالأَزهريِّ نسبَةً إِلى جَدَّيهِ الأَكبرِ والأَصغر، إِذْ كليهِما يُلقَّبانِ بِـ «الأَزهرِ».

ولِدَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ في مدينةِ (هُراةَ)[1] بِخراسانَ سنةَ (282) هجريَّةً، ونُسِبَ إِليها فقيلَ: الهرويُّ.

نَشأَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ وتَرعرَعَ في هراةَ، وتردَّدَ عَلى عُلمائِها وفُقهائِها الَّذِينَ كانوا يَعقدونَ مَجالسَ العلمِ في جامعِها الكبيرِ، حيثُ كانَتْ هُراةُ تَعجُّ بِالعُلماءِ والفُقهاءِ والقُرَّاءِ والمُحدِّثينَ في ذَلِكَ الوَقتِ.

ومِنَ الشُّيوخِ الَّذِينَ تَلقَّى عَنهُمُ «الأَزهريُّ» عُلومَهُ: أَبو الفَضلِ المُنذريُّ، وأَبو مُحمَّدٍ المُزنيُّ، وأَبو بَكرٍ الإِياديُّ الَّذِي أَثنَى عليهِ الأَزهريُّ كثيراً، وذَكرَ أَنَّهُ قرأَ عليهِ كتابَ النَّوادرِ لِلحيانيِّ، كما سَمعَ منهُ ما كَتبَهُ الكِسائيُّ في معاني وقِراءاتِ القُرآنِ، ومِنهُمْ أَحمدُ بنُ عليِّ بنِ رَزينٍ، وقرأَ عليهِ كتابَ الكسائيِّ في قِراءاتِ القُرآنِ، ومِنهُمْ أَبو بَكرٍ بنُ عُثمانَ

(1) هراة: مدينة كبيرة عامرة، وهي إِحدَى أمهات المدن في خراسان، وكان بها من فقهاء المسلمين خلق كثير وفيها بساتين وأنهار ومياه جارية، ولها أربعمئة قرية تابعة لها، وهي حلقة وصل ما بين بلاد فارس وسجستان وخراسان، افتتحها الأحنف بن قيس في عهد عثمان بن عفان ﷺ.

السّجزيُّ، وقَرأَ عليهِ كتابَ أَبي حاتمٍ السّجستانيُّ في قِراءاتِ القُرآنِ، وفي ذلكَ يقولُ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ في مُقدِّمةِ كتابِهِ «تَهذيبِ اللُّغةِ»: «ما كانَ في كتابي لأَبي حاتمٍ في القُرآنِ فَهوَ مِمَّا سَمعتُهُ مِنْ أَبي بَكرٍ بنِ عُثمانَ السّجزيِّ».

وفي شَبابِهِ تَحوَّلَ «الأَزهريُّ» عَنْ هُراةَ قاصداً بَغدادَ تَلبيَةً لِطموحِهِ العلميِّ، وفورَ وصولِهِ بَغدادَ التَقَى أَبا عبدِ اللهِ إِبراهيمَ بنَ عرفَةَ المُلقَّبَ بِـ «نفطويه»، وكانَ مِنْ كبارِ أَئِمَّةِ وأَربابِ اللُّغةِ في بَغدادَ، فَلزمَهُ وصَحبَهُ فترةً طويلَةً، وتَتلمذَ عَلى يَديهِ في علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، كما التَقَى بِكبارِ عُلماءِ اللُّغةِ، ولَكنَّهُ لَمْ يَروِ عَنْهُمْ، إِلَّا أَنَّهُ أَشارَ إِلى اجتماعِهِ بِأَبي إِسحاقَ الزَّجاجِ، وقَرأَ ما وصلَ إِليهِ مِنْ كتابِهِ في معاني القُرآنِ وإِعرابِهِ، فقالَ الأَزهريُّ: «ما وَقعَ في كتابي مِنْ تَفسيرِ القُرآنِ فَهوَ مِنْ كتابِهِ ـ يَعني: أَبا إِسحاقَ الزَّجاجِ ـ «معاني القُرآنِ»، ولَمْ أَتفرَّغْ في بَغدادَ لِسماعِهِ مِنهُ».

كما التَقَى الأَزهريُّ في بَغدادَ بِعالمِ اللُّغةِ والنَّحوِ الكبيرِ «ابنِ دُريدٍ»، ولَكنَّهُ لَمْ يَسمَعْ عَنهُ، كما اجتَمَع في بَغدادَ بِكوكبَةٍ مِنْ عُلماءِ التَّفسيرِ والفقهِ، كانَ مِنهُمْ: أبو مُحمَّدٍ عبدُ اللهِ بنُ عَبدِ الوهَّابِ البَغويُّ الَّذِي كانَ إِمامَ الفقهِ الشَّافعيِّ في العراقِ، وعبدُ اللهِ بنُ مُحمَّدٍ بنِ هاجكَ، وأَبو القاسمِ عبدُ اللهِ بنُ مُحمَّدٍ بنِ عَبدِ العزيزِ البَغويُّ، وغيرُهُمْ.

إِذاً، أَخَذَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ عُلومَ اللُّغةِ عَنْ نفطويه الَّذِي تَلقَّى عِلمُهُ بِدورِهِ عَنْ كبارِ أَئِمَّةِ اللُّغةِ في عَصرِهِ، سَواءٌ كانوا مِنَ الكوفيينَ أَو البَصريينَ.

❁ ❁ ❁

كانَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ عالِماً حاذِقاً في اللُّغةِ ومُجرَّباً، لَمْ يَعتمِدْ في تَنميَةِ مَعرفَتِهِ باللُّغةِ عَلى قِراءاتِهِ أَو سَماعِهِ مِنَ العُلماءِ وحَسب، وإِنَّما خالَطَ أَهلَ الفَصاحةِ والبَيانِ مِنْ عَربِ الباديةِ الذينَ لا يُلحنونَ في لَفظِهِمْ، ولا يُخطئونَ في لُغتِهِمْ، وكانَ ذَلِكَ مِنْ قَبيلِ الصُّدفَةِ، ومِنْ تَداعي الأَحداثِ الَّتي لَمْ يَكُنْ لَهُ فيها يَدٌ أَو حيلةٌ.

حَجَّ إِلى مَكَّةَ سنةَ (310) هجريَّةً، وهوَ في طريقِ عودتِهِ وَقعَ أَسيراً في يَدِ القَرامطةِ الَّذينَ قاموا بِثورةٍ انقلابيَّةٍ عَلى الخليفَةِ العباسيِّ المُقتدرِ بِاللهِ، واستولوا عَلى بَعضِ المُدنِ والمَناطقِ في الجزيرةِ العربيَّةِ وبِلادِ العراقِ، وقَطعوا بَعضَ الطُّرقِ الموصلةِ إِلى بَغدادَ عاصمةِ الخِلافَةِ.

ويُقالُ: إِنَّ القَومَ الَّذينَ وَقعَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ في سِهمِهِمْ مِنَ القَرامطةِ، عَربٌ مِنْ أَهلِ الباديَةِ مِنْ قَبيلَةِ هوازنَ؛ كانوا يَعيشونَ عَلى أَطرافِ مَنطقَةِ نَجدٍ، ويَتكلَّمونَ عَلى السَّجيَّةِ بِطباعِهِمُ البَدويَّةِ، فلا يَكادُ يَقعُ في كلامِهِمْ لَحنٌ أَو خَطأٌ لُغويٌّ، وقد بَقِي في إِسارِهِمْ مدَّةً طويلَةً فَأَفادَتْهُ إِقامَتُهُ الطَّويلةُ بينَهُمْ في الاطِّلاعِ الواسعِ عَلى اللُّغةِ وأَلفاظِها، وأَثبتَ أَكثرَها في كتابِهِ «تَهذيبِ اللُّغةِ».

ومِنْ ثمَّ بَعدَ القَضاءِ عَلى القرامطةِ، ومُلاحقةِ فُلولِهِمْ، وتَحريرِ مَنْ وَقعَ في إِسارِهِمْ مِنْ مُخالِفيهِمْ، عادَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ إِلى بَغدادَ سالماً وظافراً بِما أَصابَهُ مِنْ علمٍ ومَعرفَةٍ طوالَ إِقامَتِهِ في ديارِ الأَسرِ، وعَلى فَورِهِ شَرعَ في تأليفِ مُعجمِهِ «تَهذيبِ اللُّغةِ» حَتَّى إِذا ما انْتَهى مِنهُ قامَ بِعرضِهِ عَلى العُلماءِ فَأُعجبوا بِهِ ومَدحوهُ، كما تَلقَّاهُ عامَّةُ النَّاسِ وقَبلوهُ

قبولاً حَسناً لِما وَجدوا فيهِ مِنْ علمٍ نادرٍ، ومعرفَةٍ واسِعةٍ لَمْ تَكُنْ موجودةً في كُلِّ معاجمِ اللُّغةِ الَّتِي كانَتْ قَبلَهُ.

وعِندما حَقَّقَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ شهرَةً واسعةً بينَ النَّاسِ في كافَّةِ أَنحاءِ البِلادِ، ولَمعَ اسمُهُ في سَماءِ العِلمِ كَأَحدِ النُّجومِ النَّيِّرَةِ بِالعلمِ والثَّقافَةِ والعُرفانِ، عادَ إِلى مَسقطِ رأسِهِ مدينةِ (هراةَ) واشتغلَ بِتدريسِ اللُّغةِ والفِقهِ عَلى المَذهبِ الشَّافعيِّ، كما شرعَ في التَّأليفِ والتَّصنيفِ في أَوقاتِ فَراغِهِ، وما يَزالُ هذا دَأبُهُ وهو مُقيمٌ في هُراةَ لا يُغادرُها أَو يَبرحُ عَنها، حَتَّى أَدرَكَتْهُ الوفاةُ سَنةَ (370) هجريَّةً.

تَخرَّجَ عَلى يَديهِ عِدَّةُ عُلماءَ مِنْ أَعلامِ الأُمَّةِ، حَيثُ كانَتْ لَهُ مَدرسَتُهُ اللُّغويَّةُ والفقهيَّةُ في هُراةَ يَؤُمُّها طلَّابُ العلمِ والدَّارسونَ مِنْ بلادِ فارس وخُراسانَ وسجستانَ وبِلادِ السّندِ والهندِ مِمَّنْ يَرغبونَ في تَحصيلِ العلمِ الشَّرعيِّ.

وكانَ مِنَ العُلماءِ الَّذِينَ رَوَوا عَنهُ: مُحدِّثُ هُراةَ وعالِمُها المُقدَّمُ أَبو يَعقوبَ القرابُ السّرخسيُّ الهَرويُّ، والعالمُ الجليلُ أَبو سَعيدٍ محمَّدُ بنُ عليِّ بنِ عمرو ـ وهوَ الَّذِي رَوَى عَنِ الأَزهريِّ كتابَ (معاني القِراءاتِ) ـ وأَبو ذَرٍّ عبدُ اللهِ بنُ أَحمدَ الحافظُ الهرويُّ ـ وكانَ عالماً بِالحديثِ ومِنْ فُقهاءِ المالكيَّةِ، ولَهُ كتبٌ جليلةٌ في التَّفسيرِ والحديثِ ـ وأَبو عُبيدِ اللهِ أَحمدُ بنُ مُحمَّدٍ الهرويُّ صاحبُ كِتابِ (الغَريبينِ) ـ وكانَ أَديباً فاضِلاً رَوَى عَنِ الأَزهريِّ الكثيرَ مِنْ أَقوالِهِ وآرائِهِ في اللُّغةِ ومعانيها ـ.

ومِمَّا يُؤخذُ عَلى أَبي منصورٍ الأَزهريِّ تَحاملُهُ الشَّديدُ ـ كَأُستاذِهِ نفطويه ـ عَلى

الخليلِ بنِ أَحمدَ الفَراهيدِيِّ، وزَعمُهُ بِأَنَّ كتابَ (العينِ) لِلخليلِ قَدْ حَوَى الكثيرَ مِنَ النَّقصِ والأَخطاءِ، وكَذلِكَ أَيضاً تَحامُلُهُ عَلى ابنِ دُريدٍ الأَزديِّ، وزَعمُهُ أَنَّ كتابَ الجَمهرةِ لابنِ دُريدٍ قَدْ حَوَى الكثيرَ مِنَ الأَلفاظِ الَّتِي لا أَصلَ لَها في كلامِ العربِ.

❋ ❋ ❋

كانَ أَبو مَنصورٍ الأَزهريُّ عالِماً مِنْ عُلماءِ العربيَّةِ المُوسوعيينَ، فَقَدْ تركَ وراءَهُ مُصنَّفاتٍ كثيرةً في اللُّغةِ والغريبِ والقِراءاتِ، وذكَرها المُؤرِّخونَ فَبلغَتْ ثَمانيَةَ عَشرَ كتاباً مِنها: كتابُ «عِلَلِ القِراءاتِ»، وكتابُ «تَفسيرِ أَسماءِ اللهِ ﷻ»، وكتابُ «معاني شَواهدِ غَريبِ الحديثِ»، وكتابُ «تَفسيرِ شعرِ أَبي تَمَّام»، وكتابُ «الرَّدِّ عَلى الإِمامِ اللَّيثِ بنِ سَعدٍ»، وكتابُ «الزَّاهرِ في غَرائِبِ الأَلفاظِ الَّتِي تَستَعملُها الفُقهاءُ».

عَلَى أَنَّ أَهمَّ وأَشهرَ مُؤلَّفاتِهِ قاطبةً كتابا تَهذيبِ اللُّغةِ ومَعاني القِراءاتِ، وسَنتحدَّثُ عَنهُما بِشيءٍ مِنَ التَّفصيلِ:

1 ـ مَعاني القِراءاتِ: وهوَ كتابٌ مُعتبرٌ ومُعتمدٌ عِنْدَ العُلماءِ، ومَعدودٌ عِندَهُمْ في جملَةِ كُتُبِ الأُصولِ الَّتِي صُنِّفَتْ في علمِ القِراءاتِ القُرآنيَّةِ، وقَدِ استَسقَى الأَزهريُّ مادَّتَهُ في هذا الكتابِ، مِنْ كتابِ «السَّبعةِ في القِراءاتِ» لابنِ مُجاهدٍ، كما كانَ عُمدَتَهُ في تَأليفِهِ أَيضاً كِتابا «مَعاني القُرآنِ وإِعرابِهِ» للزَّجَّاجِ، و«مَعاني القُرآنِ» لِلفرَّاءِ، وتَوخَّى فيهِ السُّهولَةَ والتَّبسيطَ، وتَفرَّدَ فيهِ عَنْ سابقيهِ بِالاستعانَةِ بِالشَّرحِ اللُّغويِّ والتَّخريجِ النَّحويِّ في إِيضاحِ عِللِ كُلِّ قِراءَةٍ مِنْ آيِ الذِّكرِ الحكيمِ.

قالَ أَحدُ الباحثينَ المُعاصرينَ: وممَّا يُحمَدُ للأَزهريِّ في هذا الكتابِ أمانتُهُ العلميَّةُ وإشارَتُهُ إلى لُغاتِ القبائلِ العربيَّةِ أو لَهجاتِها كلَّما اسْتَدعَى السِّياقُ لِذَلكَ، وشَرح دِلالاتِ الألفاظِ وتَأصيلها، إلى جانبِ تَقييدِ بعضِ الأحكامِ الفقهيَّةِ الَّتِي تُسهمُ في إيضاحِ ما يُحيطُ بالآيةِ مِن مُتَمِّماتِ تَفسيرِها.

2 ـ كتابُ تَهذيبِ اللُّغةِ: وهوَ مُعجمٌ مُؤلَّفٌ مِنْ عَشرةِ أَجزاء، وهوَ مِنْ أَطولِ مَعاجم اللُّغةِ العربيَّةِ وأهمِّها وأَكثرِها دِقَّةً وتَرتيباً، حاولَ فيهِ الأَزهريُّ جمعَ شَتاتِ اللُّغةِ بَعدَ أَنْ رحلَ وقابَلَ وشَافَهَ كثيراً مِنَ العربِ الموثوقِ بعربيَّتِهِمْ، مِنْ أَجلِ جَمعِ هذِهِ المادَّةِ اللُّغويَّةِ الرَّائِعةِ المَعروفةِ بِاسمِ «تَهذيبِ اللُّغةِ»، هذا وقَدْ أَثنَى كثيرٌ مِنَ العُلماءِ المُتقدِّمينَ والمُتأَخِّرينَ على هذا المُعجمِ اللُّغويِّ، فَمثلاً مَدحَهُ ابنُ مَنظورٍ بَعدَ أَنْ أَوردَ في مُعجمِهِ «لِسانِ العربِ» ما انطَوَى عليهِ «التَّهذيبُ» مِنْ مادَّةٍ لُغويَّةٍ قَيِّمَةٍ، وأَثنَى في مُقدِّمةِ لِسانِ العربِ عَلى الأَزهريِّ فَقالَ: «لَمْ أَجِدْ في كُتبِ اللُّغةِ أَجملَ مِنْ تَهذيبِ اللُّغةِ لأَبي مَنصورٍ مُحمَّدِ بنِ أَحمدَ الأَزهريِّ».

ويَقولُ أَحدُ الباحثينَ المُعاصرينَ مادحاً ما قَدَّمَهُ الأَزهريُّ في التَّهذيبِ مِنْ مادَّةٍ لُغويَّةٍ ثَريَّةٍ: جمعَ الأَزهريُّ في «تَهذيبِ اللُّغةِ» كثيراً منَ النُّصوصِ اللُّغويَّةِ ونَسبَها إلى أَصحابِها وصَحَّحَ مُصَحَّفَها وأَودَعَهُ فَوائِدَ لُغويَّةً نَفيسَةً، وذَكرَ في مُقدِّمتِهِ العُلماءَ الَّذِينَ أَخذَ عَنهُمْ وجَعلَهُمْ طبقاتٍ، كما عُنيَ بِذكرِ البُلدانِ والمواضعِ والمياهِ عنايَةً كبيرةً، حَتَّى عُدَّ كتابَهُ مِنْ أَصحِّ المَصادرِ في هذا الموضوعِ.

ويَذكرُ الأَزهريُّ في مُقدِّمةِ التَّهذيبِ الدَّوافعَ الَّتِي دَفَعتْهُ إِلى تأليفِهِ، فَيقولُ ما نَصُّهُ: «ولَقَدْ دعاني إِلَى ما جَمعتُ في هذا الكتابِ مِنْ لُغاتِ العربِ وأَلفاظِها خِلالٌ ثَلاثٌ:

مِنها: تَقييدُ نُكتٍ حَفظْتُها ووَعَيتُها مِنْ أَفواهِ العربِ الَّذِينَ شاهدتُهُمْ وأَقَمتُ بينَ ظَهرانيهِمْ؛ إِذْ كانَ ما أَثبَتَهُ كثيرٌ مِنْ أَئِمَّةِ اللُّغةِ في الكُتبِ الَّتِي أَلَّفوها والنَّوادرِ الَّتِي جَمعوها لا يَنوبُ منابَ المُشاهدةِ ولا يَقومُ مقامَ الدِّرايَةِ والعادةِ.

ومِنها: النَّصيحةُ الواجبةُ عَلى أَهلِ العلمِ لِجماعةِ المُسلمينَ في إِفادَتِهِمْ في ما لعلَّهمْ يَحتاجونَ إِليهِ. وقَدْ رَوينا عَنِ النَّبيِّ ﷺ أَنَّهُ قالَ: «**أَلا إِنَّ الدِّينَ النَّصيحَةُ للهِ ولِكتابِهِ ولأَئمَّةِ المُسلمينَ وعامَّتِهِمْ**».

والخلَّةُ الثَّالثَةُ الَّتِي لَها أَكثرُ القَصدِ، أَنِّي قَرأْتُ كُتُباً تَصدَّى مُؤلِّفوها لِتَحصيلِ لُغاتِ العربِ فيها مثل كتابِ العينِ المَنسوبِ إِلى الخَليلِ، ثُمَّ كُتُبِ مَنْ حَذا حَذوَهُ في عَصرِنا. هذا وقَدْ أَخلَّ بِها ما أَنا ذاكرُهُ مِنْ دَخلِها وعَوارِها. وأَلفَيتُ طُلَّابَ هذا الشَّأنِ مِنْ أَبناءِ زَمانِنا لا يَعرفونَ مِنْ آفاتِ الكُتبِ المُصحَّفَةِ المَدخولَةِ ما عَرفتُهُ، ولا يُميِّزونَ صَحيحَها مِنْ سَقيمِها كما مَيَّزتُهُ.

وكانَ مِنَ النَّصيحةِ الَّتِي التَزمتُها تَوخِّياً لِلمَثوبَةِ مِنَ اللهِ عليها أَنْ أَنضَحَ عَنْ لُغةِ العربِ ولِسانِها العربيِّ الَّذِي نَزلَ بِهِ الكتابُ وجاءَتْ بِهِ السُّنَنُ والآثارُ».

ورغمَ ذَلكَ التَّحاملِ الشَّديدِ الَّذِي شَنَّهُ الأَزهريُّ عَلى الفَراهيديِّ وكتابِهِ «العينِ» إِلَّا أَنَّهُ

اتَّبَعَ أَثرَهُ ومَنهجَهُ في تَرتيبِ مُعجمِهِ «تَهذيبِ اللُّغةِ» فَرتَّبَهُ وفقَ مَخارجِ الحروفِ عَلى نَهجِهِ، ولَكنَّهُ خالفَهُ في أمورٍ، مِنها التَّفريقُ بينَ المُعتلِّ والمَهموزِ.

ويُقالُ: إِنَّ الأَزهريَّ قَصدَ مِنْ تَسميَةِ مُعجمِهِ «تَهذيبِ اللُّغةِ» نَفيَ ما أُدخلَ عَلى لُغةِ العربِ مِنَ الأَلفاظِ المُصحَّفةِ غيرِ الفَصيحةِ وتَهذيبِها، وحرصَ على أنْ يودعَهُ ما صَحَّ لَهُ سماعاً مِنْ لُغةِ العَربِ.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا أخذَ الأَزهريُّ عَلى عاتِقِهِ؟

2 ـ ماذا كانَ الأَزهريُّ يُفسِّرُ لِلفُقهاءِ، ولِماذا؟

3 ـ ماذا كانَ يفعلُ الأَزهريُّ وهوَ يَشرحُ وجوهَ القِراءاتِ لآياتِ القُرآنِ الكريمِ؟

4 ـ لِماذا لُقِّبَ الأَزهريُّ بِهذا الاسمِ، ولِماذا لُقِّبَ بِالهرويِّ؟

5 ـ هَلِ اعتمدَ الأَزهريُّ في تَنميَةِ مَعرفَتِهِ بِاللُّغةِ عَلى قِراءاتِهِ أَو سَماعِهِ مِنَ العُلماءِ فَقَط؟ بيِّنْ ذَلِكَ بِالتَّفصيلِ.

6 ـ لِماذا تَلقَّى النَّاسُ مُعجمَ تَهذيبِ اللُّغةِ وقَبلوهُ قبولاً حَسناً؟

7 ـ مِنْ أينَ اسْتَسقَى الأَزهريُّ مادَّةَ كتابِهِ معاني القراءاتِ؟

ابن منظور
القاضي المحقِّق
(630 ـ 711هـ)

ابنُ مَنظورٍ، القاضي المحقِّق، صاحبُ التَّصانيفِ المَشهورةِ، وواضعُ أَكبرِ مُعجمٍ لأَلفاظِ اللُّغةِ العربيَّةِ، المَعروفِ بِمُعجمِ «لِسانِ العربِ»، مِنْ عُلماءِ لُغَتِنا العربيَّةِ الجَميلةِ الَّذِيْنَ لَمْ يدَّخِروا جهداً طوالَ حياتِهِمْ في خِدمةِ العربيَّةِ، لُغةِ الضَّادِ، وفي وَضعِ المُصنَّفاتِ الَّتي تَبحثُ في قَواعدِها، أَو في شَرحِ غَامضِها، أَو في بَيانِ مُشكلِها، أَو في تَقريبِ بَعيدِها، أَو قَنصِ شاردِها.

فَهوَ مِنَ العُلماءِ المُكثرينَ مِنَ التأليفِ والتَّصنيفِ، فَكانَ مُكبّاً عَلى البَحثِ والتَّحقيقِ في كُتُبِ مَنْ سَبقوهُ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ العربيَّةِ، فَقامَ بِاختصارِ ما وَصلَ إِليهِ مِنْ كُتبِهِمْ وبِشكلٍ خاصٍّ الطِوالِ مِنها، وكما اشْتُهِرَ عَنهُ أَنَّهُ لَمْ يَضعِ القلمَ، ولَمْ تَهدأْ يَدُهُ عَن الكِتابَةِ والتَّأليفِ طوالَ حياتِهِ حَتَّى موتِهِ.

أقولُ: كانَ عَلَّامةُ اللُّغةِ «ابنُ مَنظورٍ» مُغرَماً أَشدَّ الغرامِ في اختصارِ كُتبِ الأَدبِ واللُّغةِ والأَخبارِ والنَّوادرِ، حَتَّى قالَ عَنهُ المُؤرِّخُ «الصَّفديُّ»: «ولا أَعرفُ في كُتبِ الأَدبِ شَيئاً

إِلَّا وقَدِ اختَصرَهُ».

كما يَذكرُ «الصَّفديُّ» عَنْ وَلدِهِ «قُطبِ الدِّينِ»: أَنَّهُ تَركَ بِخطِّ يَدهِ خَمسمئةَ مُجلَّدةً، ولَمْ يَزلْ يَكتُبُ إِلى أَنْ صارَ ضَريراً وعميَ في آخرِ عُمرِهِ.

إِذاً؛ كانَ «ابنُ مَنظورٍ» مِنَ الطِّرازِ النَّادرِ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْنَ لَمْ تُلهِهِمْ تِجارةٌ ولا بيعٌ عَنِ الانقطاعِ لِلتَّأليفِ والبَحثِ والتَّحقيقِ، ولَمْ يَنشَغلوا في مَلذَّاتِ الدُّنيا ومُلهياتِها عَنْ خِدمةِ العِلمِ أَو طَلبِ المعرفَةِ.

أَضِفْ إِلى ذَلكَ، أَنَّهُ كانَ عالِماً ثَبتاً حجَّةً مُتَمكِّناً مِنْ علومِ اللُّغةِ، ومِنَ العلومِ الشَّرعيَّةِ، وبِشكلٍ خاصٍّ علمِ الفقهِ والرِّوايَةِ مِنها، وكانَ ضَليعاً بِعلمِ التَّاريخِ فَسَخَّرَ ثَقافَتَهُ العلميَّةَ، وكُلَّ إِمكانياتِهِ المَعرفيَّةِ في خِدمةِ اللُّغةِ العربيَّةِ، حَتَّى صارَ نَجماً لَمعَ في سَمائِها، وقَصدَهُ القاصي والدَّاني، يَغرفونَ مِنْ بِحارِ علمِهِ الجَمِّ والزَّاخرِ بِلآلئِ المَعرفَةِ، وبِجواهرِ العلمِ النَّفيسَةِ.

وفَوقَ هذا وذاكَ، كانَ شاعراً أَريباً ومُجرَّباً في عِلمِ القَريضِ، غيرَ أَنَّهُ كانَ مُقِلّاً مِن الشِّعرِ، ولَمْ تَروِ لَهُ كُتُبُ الأَدبِ إِلَّا نَذراً يَسيراً مِنَ المَقطوعاتِ الشِّعريَّةِ المُتفرِّقةِ الَّتي قالَها في بَعضِ المُناسباتِ.

فَمَنْ هوَ «ابنُ مَنظورٍ»، وأَينَ نَشأَ وعاشَ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ هذِهِ الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ عالمُ اللُّغةِ، والمُؤرِّخُ أَبو الفَضلِ جمالُ الدِّينِ مُحمَّدُ بنُ مَكرمٍ الأَنصاريُّ الخُزرجيُّ الرُّوَيفعيُّ الإفريقيُّ، ولُقِّبَ بِابنِ مَنظورٍ نسبةً إِلى جَدِّهِ السَّابعِ «مُحمَّدِ بنِ مَنظورٍ بنِ مُعافى»، وهوَ مِنْ نَسلِ الصَّحابيِّ الجَليلِ «رُويفعِ بنِ ثابتٍ»[1] ﷺ، وإِليهِ يُنسبُ، فَيُقالُ: «الرُّويفعيُّ»، كما أَنَّ أَصلَهُ مِنْ قبيلَةِ الخزرجِ مِنَ الأَنصارِ أَهلِ المدينةِ المُنوَّرةِ، فَيُقالُ: الخزرجيُّ الأَنصاريُّ.

وبِما أَنَّ جدَّهُ «رويفع بنَ ثابتٍ» ﷺ كانَ أَميراً عَلى طرابلسَ الغربِ وعَلى شمالِ إِفريقيَّةَ في عهدِ الخليفةِ الأُمويِّ مُعاويَةَ بنِ أبي سَفيانَ، وعاشَ أَبناؤُهُ مَعهُ هُناكَ، فَقَدْ ولِدَ «ابنُ مَنظورٍ» ـ كما رَجَّحَ المُؤرِّخونَ ـ سنةَ (630) هجريَّةً، قيلَ في مصرَ، وقيلَ في ليبيا، وقيلَ في تونُسَ، ولَكِنْ عَلى الأَغلبِ أَنَّهُ ولدَ في مصرَ؛ لأَنَّ مِنْ بينِ شيوخِهِ الَّذِيْنَ أَخذَ عَنهُمُ العلمَ «شَرفُ الدِّينِ التّيفاشيُّ»[2] وكانَ مُقيماً في مصرَ، وهوَ أَوَّلُ مَنْ لَقيَهُمْ مِنَ

---

(1) رويفع بن ثابت الأنصاري الخزرجي: صحابي من بني مالك بن النجار، شهد مع النبي ﷺ خيبراً، كما شهد فتوح الشام. تولى في عهد معاوية بن أبي سفيان أمر طرابلس الغرب سنة 46هـ ومنها غزا أفريقية سنة 47هـ ففتح جربة ووصل إلى موقع القيروان، حيث أسس مسجداً عرف بعد تأسيس القيروان باسم «مسجد الأنصار» أو «مسجد سيدي رويفع»، ثم انتقل إلى برقة في مدينة البيضاء شرق ليبيا وبقي بها إلى أن مات سنة 53هـ ودفن في مدينة البيضاء، وأقيم في المدينة ضريح له ومسجد سمي (سيدي رويفع) وهو من أشهر المعالم الدينية في المدينة.

(2) شرف الدين التيفاشي: هو أبو العباس أحمد بن يوسف بن أحمد التيفاشي نسبة إلى «تيفاش»، وهي مدينة في شمال إفريقية، نزل مصر وأقام فيها، ولهُ كتاب في الأدب كبير سماه فصل الخطاب في مدارك الحواس من 24 مجلداً، قام باختصاره ابن منظور.

العُلماءِ الَّذِيْنَ أَخذَ عنهُمُ العلمَ.

ومِنَ الواضحِ أَنَّ «ابنَ مَنظورٍ» قَدْ نَشأَ نَشأَةً علميَّةً عظيمةً منذُ نعومةِ أَظفارِهِ، وأَنَّ أَباهُ كانَ مِنْ ذَوي الشَّأنِ والعلمِ والدينِ، فَوفَّر لابنِهِ كُلَّ أَسبابِ النُّبوغِ والظُّهورِ والتَّفوُّقِ عَلى أَقرانِهِ، فَكانَ في طفولتِهِ مَشغولاً بِالعلمِ، مدفوعاً إِلى مُجالسَةِ العُلماءِ والتَّحصيلِ مِنهُمْ.

يَقولُ «ابنُ مَنظورٍ» في مُقدِّمةِ كتابِهِ «نثارِ الأَزهارِ»: «وكُنتُ في أَيَّامِ الوالدِ رحمه الله أَرَى تَردُّدَ الفُضلاءِ عليهِ، وتَهافُتَ الأُدباءِ عليهِ، ورأَيتُ الشَّيخَ شَرفَ الدِّينِ التِّيفاشيَّ في جُملتِهِمْ وأَنا في سِنِّ الطُّفولةِ، لا أَدري ما يَقولونَ، ولا أُشارِكُهُمْ فيما يَلقونَهُ، غيرَ أَنِّي أَسمعُهُ يَذكرُ لِلوالدِ كتاباً صَنَّفَهُ، أَفنَى فيهِ عُمرَهُ، واستغرقَ دَهرَهُ، وأَنَّهُ سَمَّاهُ «فَصلَ الخِطابِ»، وأَنَّهُ لَمْ يَجمَعْ ما جَمعَ فيهِ كتابٌ، وكُنتُ شَديدَ الشَّوقِ لِلوقوفِ عليهِ».

استفادَ «ابنُ مَنظورٍ» كثيراً مِنْ هذِهِ الحركةِ العلميَّةِ الَّتي كانَتْ تَعمرُ بِها دارُ أَبيهِ، فَانصرَفَ مَشغولاً بِالعلمِ، مُهتمّاً بِتَحصيلِهِ، أَيَّما اهتمامٍ.

تابعَ «ابنُ مَنظورٍ» تَحصيلَهُ العِلميَّ، فَلزمَ عِدَّةَ شيوخٍ مِنْ كبارِ عُلماءِ عَصرِهِ، فَسمعَ مِنْهُمْ عُلوماً شَتّى، وعَلى رأسِ هَؤلاءِ العُلماءِ: ابنُ المقيرِ[1]، ومُرتَضَى بنُ حاتمٍ[2]،

---

(1) ابن المقير: هو أبو الحسن علي بن الحسين ابن المقير المقرئ النجار مسند الديار المصرية، حدّث ببغداد ودمشق ومكة ومصر، وكان عالماً صالحاً كثير العبادة، وتتلمذ على يديه الكثير من العلماء. توفي في مصر سنة 643هـ وله من العمر 96 سنة.

(2) أبو الحسن مرتضى بن حاتم بن أبي العرب بن عباس الحاثي المقدسي الأصل المصري المولد والدار، وهو أحد المشايخ المعروفين بالطلب والحديث، كان موصوفاً بالخير والصلاح وكتب بخطّه كثيراً.

ويوسفُ بنُ المخيلي[1]، وعبدُ الرحمن بنُ الطُّفيلِ[2].

❋ ❋ ❋

كانَ «ابنُ مَنظورٍ» عَلى قَدرٍ كبيرٍ مِنَ الأَخلاقِ الفاضلةِ، فَإِلى جانبِ منزلتِهِ العلميَّةِ العاليَةِ، حيثُ كانَ مُقدَّماً بينَ عُلماءِ عَصرِهِ، وسِمَ بِالصَّلاحِ والورعِ والتَّقوَى، وحميدِ السِّيرَةِ بينَ النَّاسِ، وانشغَلَ بِمعالي الأُمورِ، فَقَدَّرَ الناسُ فيهِ استقامَتَهُ وتورُّعَهُ وتَرَفُّعَهُ عَنِ الدَّنايا، حَتَّى تِلكَ الَّتي كانَتْ في كثيرٍ مِنَ الأَحيانِ تَسودُ في نُفوسِ العُلماءِ، مِنْ إِعجابٍ أَو كُبرٍ أَو غُرورٍ، أَو تَزلُّفٍ أَو طَمعٍ في الشُّهرةِ، وغيرِ ذَلِكَ مِنَ الكبائِرِ النَّفسانيَّةِ، والمَعاصي القَلبيَّةِ.

وكانَ كما وَصفَهُ المُؤرِّخونَ: «صَدراً رَئيساً فاضلاً في الأدبِ، عالماً في الفقهِ واللُّغةِ، عارفاً بِالنَّحوِ والتَّاريخِ والكتابَةِ، مليحَ الإِنشاءِ لَهُ نَظمٌ ونَثرٌ، وقَدْ تَفرَّدَ بِالعَوالي».

وقَدْ أَهَّلتْه صِفاتُهُ السَّابقةُ لأَنْ يَتوَلَّى المناصبَ العلميَّةَ والسِّياسيَّةَ والقَضائيَّةَ في الدَّولةِ في عَصرِهِ، فَعملَ فترةً طَويلَةً في ديوانِ الإِنشاءِ بِالقاهرةِ، ولِنجاحِهِ وكَفاءَتِهِ العاليَةِ في هذِهِ الوَظيفَةِ، حازَ على ثقةِ ولاةِ الأَمرِ، فَأُسنِدَ إِليهِ مَنصبُ القَضاءِ في «طَرابلس الغربِ» (ليبيا

(1) يوسف بن المخيلي: هو أبو الفضل يوسف بن عبد المعطي بن منصور العسالي المعروف بابن المخيلي، توفي سنة 642هـ.

(2) أبو محمد عبد الرحمن بن الطفيل كان من العلماء المشهورين في الديار المصرية وتتلمذ على يديه العديد من العلماء ومنهم ابنه العلامة محمد بن عبد الرحمن بن الطفيل نزيل الأندلس.

حالياً)، وهوَ مَنصبٌ كانَ لا يُسنَدُ عادةً إِلَّا لِمَنْ بلغَ قدراً واسِعاً مِنَ العلمِ، وأَصابَ ضَرباً عَظيماً مِنَ الفَضائِلِ الخُلقيَّةِ والنَّفسيَّةِ.

كما أَنَّ «ابنَ منظورٍ» قَدْ طافَ في طولِ البِلادِ وعرضِها، وزارَ كُبرياتِ المُدنِ الإِسلاميَّةِ كَبغدادَ ودمشقَ ومَكَّةَ وتونسَ، والتَقَى بِكبارِ العُلماءِ المَشهورينَ فيها، وطارحَ مَعَهُمُ العِلمَ، وتَبادلَ مَعهُمُ المَعارفَ والتَّجاربَ، وعادَ مِنها بِفوائدَ جمَّةٍ، ذَكرَ طرفاً مِنها في العديدِ مِنْ مُؤلَّفاتِهِ.

ومِنْ شعرِهِ الفَصيحِ الَّذي نَسبَهُ إِليهِ المُؤرِّخونَ والرُّواةُ، قَولُهُ:

النَّاسُ قَدْ أَثموا فينا بِظَنِّهِمْ ... وصَدَّقوا بالَّذي أَدري وتَدرينَ

ماذا يَضرُّكِ في تَصديقِ قَولِهِمْ ... بِأَنْ نُحَقِّقَ ما فينا يَظنونا

ومِنْ شعرِهِ أَيضاً:

بِاللهِ إِنْ جِزتَ بِوادي الأَراكِ[1] ... وقَبَّلتْ أَغصانَهُ الخضرَ فاكَ

---

(1) الأَراكِ: واد قرب مكة وقيل: بعرفة وفيهِ يقول خَلدٌ مولى العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس:

أَما والرّاقصاتُ بِذاتِ عِرقٍ ... وهُنَّ صَلى بِنعمانِ الأَراك

وقالتْ امرأة من غطفان:

إِذا حَنَّتِ الشّقراءُ هاجَتْ لي النّوَى ... وذَكَّرني أَهلُ الأَراكِ حَنينَها

والأَراك: شجرٌ من الحمض معروف له حمل كحمل عناقيد العنب يُساكُ بِهِ، أي: بفروعه.

اِبعَثْ إِلى المُلوكِ مِنْ بَعضِهِ فَإِنَّني واللهِ ما لي سِواكَ

❁ ❁ ❁

كانَ «ابنُ مَنظورٍ» كثيرَ النَّسخِ بِخطِّ يَدِهِ، وكانَ يَختصرُ في أَوقاتِ فَراغِهِ أَثناءَ عملِهِ في ديوان الإِنشاءِ بِالقاهرةِ الكُتبَ الطِّوالَ الَّتي تَصلُ إِليهِ لِما يَجدُ في ذَلكَ مِنَ الفائدةِ العَميمةِ، الَّتي تَنفَعُهُ وتَنفَعُ النَّاسَ. فَقامَ بِاختصارِ كتابِ «فَصلِ الخطابِ في مدارِكِ الحواسِّ الخمسِ لأولي الأَلبابِ» لأحمدَ بنِ يوسفَ التِّيفاشيِّ، اختصرَهُ في مُجلَّدينِ سَماهُ «سرورَ النَّفسِ بمدارِكِ الحواسِّ الخمسِ»، واختصرَ كتابَ «الأَغاني» لأَبي الفرجِ الأَصفهانيِّ، وسَمَّاهُ «مُختارَ الأَغاني»، واختصرَ كتابَ «الذَّخيرة» لابنِ بَسَّام وسَمَّاهُ «لَطائفَ الذَّخيرةِ»، ولَهُ «مُختصرُ تاريخِ ابنِ عَساكر» و«مُختصرُ تاريخِ بَغدادَ لِلسَّمعانيِّ»، و«مُختصرُ كتابِ الحيوانِ لِلجاحظِ»، و«مُختصرُ كتابِ أَخبارِ أَبي نَوَّاسٍ»، و«مُختصرُ كتابِ المُحاضرةِ» للتَنوخيِّ، و«مُختصرُ كتابِ الأَدويَةِ المُفردةِ» لابنِ البيطارِ، ولَهُ أَيضاً «تَهذيبُ الخَواصِّ مِنْ درَّةِ الغَواصِ» للحريريِّ.

أَما أَهمُّ مُصنَّفاتِهِ الّتي أَلَّفها بِنفسِهِ، فَهيَ:

1 ـ معجمُ لِسانِ العربِ: وهوَ أَهمُّ وأَكبرُ مُؤلَّفاتِهِ قاطبةً، وشُهرتُهُ تَطيرُ في الآفاقِ، وهوَ كتابٌ جمعَ فيهِ أُمهاتِ كُتبِ اللُّغةِ بِأُسلوبِهِ وطريقَتِهِ المَنهجيَّةِ الخاصَّةِ، وهو يُعدُّ أَشملَ معاجمِ اللُّغةِ العربيَّةِ للأَلفاظِ ومعانيها، وأَعظمَ المُؤلَّفاتِ التي صُنِّفَتْ في اللُّغةِ بِصفةٍ عامَّةٍ، ومَرجعَ العُلماءِ والمُعوَّلَ عليهِ بينَ أَهلِ هذا اللِّسانِ؛ قَدْ رَتَّبَهُ مُعتمداً على التَّرتيبِ

الهجائيِّ لِلحروفِ، بانياً أَبوابَهُ عَلى الحرفِ الأَخيرِ مِنَ الكلمةِ، وأَوَّلَ أَبوابِهِ ما يَنتهي بِالهمزةِ.

وقَدْ ذكرَ في مُقدِّمتِهِ مُصرِّحاً بِفضلِ سابقيهِ الَّذِيْنَ اعتمدَ على أَبحاثِهِمْ في تَصنيفِهِ فَيقولُ: «ولا أَدَّعي فيهِ دَعوَى فَأَقولُ: شافَهتُ أَو سَمعتُ، أَو فَعلتُ أَو صَنعتُ، أَو شَددتُ الرِّحالَ أَو رَحلتُ، أَو نقلتُ عَنِ العربِ العرباءِ، أو حملتُ، فَكُلُّ هذِهِ الدَّعاوي لَمْ يَتركْ فيها الأَزهريُّ وابنُ سيده لِقائِلٍ مَقالاً، ولَمْ يُخلِّيا لأَحدٍ مَجالاً، فَإِنَّهُما عَيَّنا في كِتابِهما عَمَّنْ رَويا، وبَرهنا عَمَّا حَوَيا، ونَشرا في خُطبِهما ما طَويا، ولَعمري لَقَدْ جَمعا فَأَوعيا، وأَتيا بِالمقاصدِ ووَفيا. وليسَ في هذا الكتابِ فَضيلةٌ أَمتُّ بِها، ولا وَسيلةٌ أَتمسَّكُ بِسببِها، سِوَى أَنِّي جمعتُ فيهِ ما تَفرَّقَ في هذِهِ الكُتُبِ، وأَدَّيتُ الأَمانَةَ في نَقلِ الأُصولِ بِالفَصِّ، وما تَصرَّفتُ بِكلامٍ غير ما فيها مِنَ النَّصِ، فَليَعتَدَّ مَنْ يَنقلُ عَنْ كتابي أَنَّهُ يَنقلُ عَنْ هَذِهِ الأُصولِ الخَمسةِ».

ذَلكَ لأَنَّ «ابنَ مَنظورٍ» جمعَ في مُعجمِهِ الخالدِ هذا بينَ أُمهاتِ المُعجماتِ العربيَّةِ الخَمسةِ السَّابقةِ عليهِ، فَجمعَ بينَ «تَهذيبِ اللُّغةِ» للأَزهريِّ و«المُحكمِ» لابنِ سيده، «ومُختارِ الصِّحاحِ» لِلجوهريِّ، و«حاشيَةِ الصِّحاحِ» لِابنِ بَريٍّ، و«النهايَةِ في غريبِ الحديثِ» لابنِ الأَثيرِ، و«جمهرةِ اللُّغةِ» لابنِ دُريد.

بَلغَ عددُ المَوادِّ اللُّغويَةِ الّتي ضَمِنَها «لِسانُ العربِ» ثَمانينَ أَلفَ مادَّةٍ، وهوَ ضعفُ ما في الصِّحاحِ قَبلَهُ، وأَكثرُ بِحوالي عشرينَ أَلف مادَّةٍ مِنَ المُعجمِ الَّذي جاءَ بَعدهُ وهوَ القاموسُ المُحيطُ لِلفيروزأَبادي.

يَقولُ أَحدُ النُّقادِ المعاصرينَ مُنوِّهاً إِلى أَهميَّةِ مُعجمِ «لِسانِ العربِ» ما نَصُّهُ:

«إِنَّ «لِسانَ العربِ» يُعدُّ مُعجماً موسوعيّاً يَتَّسمُ بِغزارةِ المادَّةِ، حيثُ يَستَشهدُ فيهِ مُؤلِّفُهُ بِكثيرٍ مِنَ الآياتِ القُرآنيَّةِ والأحاديثِ النَّبويَةِ الشَّريفةِ وأَبياتِ الشِّعرِ، وقَدْ بلغَ الشِّعرُ الَّذي استشهدَ بِهِ «ابنُ مَنظورٍ» قرابَةَ اثنينِ وثَلاثينَ أَلف بيتٍ، موزَّعةٍ بينَ عصورِ الرِّوايَةِ الشِّعريَّةِ مِنْ جاهليٍّ ومُخضرمٍ وإِسلاميٍّ وأُمويٍّ وعباسيٍّ، وذلكَ إِضافةً إِلى روايَتِهِ لآلافٍ مِنْ آراءِ اللُّغويينَ والنَّحويينَ، وغيرِ ذَلكَ مِنَ الأَخبارِ والآثارِ مِمَّا يَعكسُ كثيراً مِنْ مَظاهرِ حياةِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وحياةِ المُجتمعِ العربيِّ، عَلى نَحوٍ يَجعلُهُ مُفيداً لا في المَجالِ المُعجميِّ فَقَطْ، بَلْ في مَجالاتٍ علميَّةٍ أُخرَى كثيرةٍ».

2 ـ ومِنْ مُؤلَّفاتِ «ابنِ مَنظورٍ» أَيضاً كتابُ «نثارِ الأَزهارِ في اللَّيلِ والنَّهارِ وأَطايب أَوقاتِ الأَصائلِ والأَسحارِ وسائرِ ما يَشتملُ عليهِ مِنْ كواكبِ الفلكِ الدَّوارِ».

توفيَ «ابنُ مَنظورٍ» سنةَ (711) هجريَّةً بمصرَ ودفنَ بِالقاهرةِ، بَعدَ حياةٍ علميَّةٍ حافلةٍ بِالأَحداثِ والإِنجازاتِ الّتي حَقَّقَها عَلى صَعيدِ علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وعلمِ التَّاريخِ، وغيرِ ذَلكَ منَ العلومِ الأُخرَى بَعدَ عودتِهِ مِنْ «طرابلسَ الغربِ» الَّتي تَولَّى تَصريفَ القَضاءِ فيها، وقَدْ أَعيَتْهُ السُّنونَ والأَيَّامُ، فَكانَ بَعدَ عودتِهِ مِنها إِلى القاهرةِ مَعَ الموتِ عَلى موعدٍ، فرحمَهُ اللهُ تعالى، وجزاهُ عَمَّا قَدَّمهُ لِلُّغةِ العربيَّةِ خيراً وإِحساناً.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ مَا اسْمُ المُعْجَمِ الَّذِيْ وَضَعَهُ ابْنُ مَنْظُوْرٍ؟

2 ـ مَاذَا قَالَ الصَّفَدِيُّ عَنِ ابْنِ مَنْظُورٍ؟

3 ـ مَنْ هُوَ رُوَيْفِعُ بنُ ثَابتٍ الأَنْصَارِيُّ؟

4 ـ اذْكُرِ اسْمَ كِتَابٍ قَامَ ابن مَنْظُورِ بِتَلْخِيصِهِ.

5 ـ أَيْنَ مَاتَ ابْنُ مَنْظورٍ وَأَيْنَ دُفِنَ؟

أبو نصر الجوهري
صاحب الصِّحاح
(. . . ـ 396هـ)

أبو نصرٍ الجوهريُّ، صاحبُ الصِّحاحِ، وشارحُ علمِ العروضِ بَعدَ الخليلِ بنِ أحمدَ الفَراهيديِّ، وصاحبُ الخَطِّ الجميلِ، حيثُ كانَ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْنَ جَمعوا إِلى جانبِ العلمِ فَضيلةَ الخَطِّ الجميلِ والمُتناسقِ، فَكانَ يضربُ بِخطِّهِ الرَّائعِ المَثلُ، اشْتُهِرَ بِذلكَ كما اشْتُهِرَ الكاتبُ والأَديبُ «ابن مُقلةَ».

كانَ أبو نصرٍ الجوهريُّ آيةً في العلمِ والفِطنةِ والذَّكاءِ، حَريصاً عَلى العلمِ والتَّعلُّمِ منذُ صغرِهِ، وهوَ مَعدودٌ مِنْ جملَةِ العُلماءِ والأُدباءِ الَّذِيْنَ رَحلوا وتَغرَّبوا عَنْ أَهلِهِمْ وبَلدهِمْ في سبيلِ تَحصيلِ العِلمِ، والجلوسِ إِلى العُلماءِ المَشهورينَ في البِلادِ الَّتِي زارَها ورَحلَ إِليها.

شُغفَ بِالسَّفرِ والتّرحالِ، فَطافَ مِنْ بَلدٍ إِلى أُخرَى، وهامَ بِعلمِ اللُّغةِ هياماً عَظيماً وهوَ يَجوسُ ديارَ العُلماءِ والأُدباءِ، ويَقنصُ الفوائِدَ الجَمَّةَ مِنْ عُلومِهِمْ ومَعارِفِهِمْ، وعَقدَ لِنفسِهِ رايَةً في مِضمارِ علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، فَصارَ يُشارُ إِلى عِلمِهِ وشَخصِهِ بِالبنانِ عَلى أَنَّهُ عالمٌ ثَبتٌ حِجَّةٌ، ولُغويٌّ حاذِقٌ في معرفَةِ كلامِ العربِ والعلمِ بِأُصولِ علمِ العربيَّةِ وقَواعدِها.

ولا يَخفَى عَلى كُلِّ دارسٍ عَليمٍ، أَو عَلى كُلِّ باحثٍ حَصيفٍ، أَنَّ «أَبا نَصرٍ الجوهريَّ» قَدْ حَصَّل جُلَّ علمِهِ ومَعرفَتِهِ بِاللُّغةِ وأُصولِها مِنْ مصادرِها الأَساسيَّةِ، مِنْ خلالِ تَطوافِهِ ومُعايَشتِهِ لِلعربِ العرباءِ وسَماعِهِ كلامَهُمْ عَنْ كَثبٍ، ومِنْ خِلالِ عشرتِهِ لأَهلِ الفَصاحةِ والبيانِ في مَضاربِهِمْ وديارِهِمْ، ومُشافَهَتِهِمُ اللُّغةَ، ومُباحثَتِهِمْ في دلالاتِها ومَعانيها واصطلاحاتِها.

عُدَّ أبو نصرٍ الجوهريُّ عِندَ النُّقادِ والباحثينَ قَديماً وحَديثاً أحدَ أَئِمَّةِ اللُّغةِ العربيَّةِ الَّذِيْنَ بَلغوا الدَّرجاتِ العُلَى في علومِ اللُّغةِ مَعرفةً وحِفظاً، وتَدريساً وتَصنيفاً، وأَنَّهُ كانَ فَريدَ عَصرِهِ في التَّصنيفِ المُعجميِّ لِكلامِ العربِ وأَلفاظِهِمْ، وكتابُهُ «مُعجمُ الصِّحاحِ» هوَ الدَّليلُ الأَوفَى عَلى أَنَّهُ كانَ إِمامَ عَصرِهِ في هذا الشَّأنِ، فَصارَ مَصدراً وأَصلاً يَستَقي مِنهُ علماءُ اللُّغةِ بَعدَهُ مَعرفَتَهُمْ بِاللُّغةِ وأُصولِها.

وسارَت الرُّكبانُ بِعلمِ «أَبي نَصرٍ الجوهريِّ» وتَصانيفِهِ، وكَذلِكَ بِالكُتُبِ الَّتِي كانَ يَنسَخُها بَخطِّهِ الرَّائِعِ الجميلِ، وبَشكلٍ خاصٍّ نَسخهِ لِلقُرآنِ الكريمِ، فَكانَ النَّاسُ يَتهافتونَ عَلى اقتناءِ المصاحفِ المَنسوخةِ بِخطِّهِ، ولولا أَنَّ القَدرَ سارعَ في أَجلِهِ لَكانَ لَهُ في تاريخِ اللُّغةِ أَحوالٌ وشُؤونٌ.

فَمَنْ هوَ أبو نصرٍ الجوهريِّ، وأَينَ عاشَ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ عبرَ الصَّفحاتِ التَّاليَةِ.

❁ ❁ ❁

هوَ أَبو نَصرٍ إِسماعيلُ بن حمَّادٍ الجَوهريُّ، المعروفُ بِـ «أَبي نَصرٍ الفارابيِّ» نسبَةً إِلى المدينةِ الَّتِي ولدَ ونَشأَ فيها «فاراب»، فَهوَ ابن أُختِ «إِسحاقَ بنِ إِبراهيمَ الفارابيِّ»[1] صاحبِ كتابِ ديوانِ الأَدبِ.

وذكرَ المُؤَرِّخُونَ ـ ومنهُمْ ياقوتُ الحمويُّ في معجمِ الأَدباءِ ـ أَنَّ أَصلَ أَبي نصرٍ الجوهريِّ مِنْ بلادِ التُّركِ مِنْ «فاراب»، ولَمْ يُبَيِّنوا حَقيقَةَ أَصلِهِ، أَعربيٌّ هوَ أَمْ تُركيٌّ؟ غيرَ أَنَّ «الحميريَّ» يَذكرُ في كتابِهِ «الرَّوضِ المعطارِ في خبرِ الأَقطارِ» أَنَّ فاراب مدينةٌ في بِلادِ التُّركِ فيها مَسلحةٌ لِلمُسلمينَ ومَسلحةٌ للأتراكِ، ومِنْ هذا التَّقسيمِ الَّذِي ذَهبَ إِليهِ الحميريُّ يُمكِنُنا أَنْ نُرَجِّحَ بِأَنَّ الجوهريَّ رُبَّما كانَ أَصلُهُ مِنَ العربِ المُسلمينَ الَّذِيْنَ سَكنوا فاراب منذُ بِدايَةِ الفَتحِ الإِسلاميِّ لِبلادِ التُّركِ والدَّيلمِ.

كَما لَمْ يَذكُرْ لنا المُؤَرِّخُونَ سَببَ تَسميَتِهِ بِالجوهريِّ، وعَلى الأَغلبِ أَنَّ هذا اللَّقبَ كانَ يُطلقُ عَلى أَبيهِ كُنيَةً ونَسباً.

وِلدَ أبو نصرٍ الجوهريُّ في مدينةِ فاراب، وقَدْ أَغفلَ المُؤَرِّخُونَ عامَ ولادتِهِ، ونشأَ وتَرعرَعَ فيها، وكانَ أُعجوبَةً مِنْ أَعاجيبِ زَمانِهِ في الفِطنةِ والذَّكاءِ والعلمِ، كما كانَ خَطُّهُ يُضربُ بِهِ المثلُ في الرَّوعةِ والجودةِ، ولا يَكادُ يُفرِّقُ بينَهُ وبينَ خَطِّ «ابن مقلةَ»[2].

---

(1) إِسحاق بن إبراهيمَ الفارابيّ نسبةً إِلى «فاراب» صاحب التصانيف وخال أبي نصر الجوهري، ذكره ياقوت الحموي في معجم الأدباء بأنه رحل إِلى اليمن ونزل مدينة زبيد وسكن فيها حتى وفاته وصنف فيها كتابه المشهور في علم اللغة والنحو ديوان الأدب. توفي سنة 370هـ.

(2) هو أبو علي بن الحسين بن مقلة الكاتب المشهور، تَولى الوزارة في بلاد فارس لِثلاثةِ خلفاء من بني =

تَلقَّى أبو نصرٍ الجوهريُّ علمَهُ في البِدايةِ عَلى بَعضِ عُلماءِ وشيوخِ فارابَ، وخاصَّةً على خالِهِ «إسحاقَ بنِ إبراهيمَ الفارابيِّ» الَّذِي كانَ أَحدَ عُلماءِ اللُّغةِ المَشهورينَ في فارابَ، ولَمَّا وَجدَ في شَبابِهِ أَنَّ مدينةَ فارابَ لا تُلَبِّي طموحَهُ العلميَّ، ولا تُرضي تَطلُّعَهُ نَحوَ التَّعمُّقِ والتَّخصُّصِ في عُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، رَحلَ إلى بِلادِ العراقِ، ولازمَ في بَغدادَ كُلّاً مِنَ الشَّيخينِ «أَبي عليٍّ الفارسيِّ» و«أَبي سعيدٍ السِّيرافيِّ» الَّلذينِ كانا إمامي عَصرِهِما في عُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وقَرأَ عليهِما عُلومَ اللُّغةِ حَتَّى برعَ فيها.

ثُمَّ قَصدَ بِلادَ الحجازِ، وأَقامَ فيها فترةً طويلةً شافَهَ خِلالَها بِاللُّغةِ وأُصولِها العربَ العاربَةَ (أَهلَ الفَصاحةِ والبيانِ)، وقَدْ ذكرَ في مُقدِّمةِ كتابِهِ «الصِّحاحِ» أَنَّهُ طافَ في بِلادِ ربيعةَ ومُضر وأَجهدَ نفسَهُ في الطَّلبِ، ولَمَّا قَضى وطرَهُ مِنَ الطَّوافِ عادَ راجعاً إلى خُرَّاسانَ وتَطرَّقَ إلى مدينةِ دامغانَ[1] فَأنزلَهُ عندَهُ عالِمُها «أَبو عليٍّ الحُسينُ بنُ عليٍّ» وأَخذَ منهُ وسَمعَ مِنهُ، ثُمَّ رحلَ إلى مدينةِ نيسابور[2]، فَلَمْ يزلْ مُقيماً بِها على التَّدريسِ والتأليفِ وتعليمِ الخطِّ وكتابةِ المصاحفِ والدَّفاترِ حَتَّى مَضى سبيلهُ عَنْ آثارٍ جميلةٍ.

ماتَ أبو نصرٍ الجوهريُّ في نيسابور سنةَ (396)، وقيلَ سنةَ (393) هجريَّةً، وكانَ

= العباس، كان يُضربُ المثل بخطّه الجميل وإليه يُعزَى الخَطُّ الكوفيّ، توفي سنة 328هـ بعد أن قطعت يده ولسانه بِمؤامرة دبرها الخليفة الراضي مع حاجبه ابن المؤيد.

(1) مدينة بخراسان بين الرّي ونيسابور، فتحها عبد الله بن عامر بن كريز في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وكان أَهلها قوماً من العجم.

(2) مدينة بخراسان كبيرة وعامرة بالقرى التي حولها، فتحها أيضاً عبد الله بن عامر بن كريز في خلافة عثمان بن عفان رضي الله عنه.

سببُ موتِهِ أَنَّهُ صَنعَ جناحينِ مِنْ خشبٍ وأَرادَ أَنْ يَطيرَ بِهما، فَوقعَ عَلى الأَرضِ ولَقيَ حتفَهُ على الفَورِ.

فَقَدْ ذكرَ «أبو الحسنِ عليُّ بن فضَّالٍ المجاشعيُّ» في كتابِهِ «شجرةِ الذَّهبِ في معرفَةِ أَئمَّةِ الأَدبِ»، قالَ: كانَ الجوهريُّ قَدْ صَنَّفَ كتابَ «الصِّحاحِ» للأُستاذِ «أَبي مَنصورٍ عبدِ الرَّحيمِ بنِ مُحمَّدِ البيشكيِّ»، وسَمعَهُ (يَعني البيشكيُّ) مِنهُ إِلى بابِ الضَّادِ المُعجمةِ، واعترَى الجوهريَّ وَسوسةٌ فانتقلَ إِلى الجامعِ القَديمِ بِنَيسابورَ، فَصعدَ إِلى سَطحِهِ وقالَ:

«أَيُّها النَّاسُ، إِنِّي عُلِّمتُ في الدُّنيا شَيئاً لَمْ أَسبِقْهُ، فَسأَعملُ للآخرةِ أَمراً لَمْ أُسبَقْ إِليهِ، وضَمَّ إِلى جَنبيهِ مِصراعيّ بابٍ وتَأَبَّطَهُما بِحبلٍ وصَعدَ مكاناً عالياً مِنَ الجامعِ»، وزَعمَ أَنَّهُ يَطيرُ، فَوقَعَ فَماتَ.

فَهوَ يُعتبرُ أَوَّلَ مَنْ حاولَ الطيَّرانَ بِجناحينِ صِناعيينِ، بيدَ أَنَّ مُحاولَتَهُ لَمْ تَكُنْ بِأَسبابٍ علميَّةٍ كما فَعلَ عبَّاسُ بنُ فرناس، وإِنَّما عَنْ مَسٍّ مِنَ الوَسوَسةِ أَصابَهُ، فَعمدَ بعدَ موتِهِ تلميذُهُ الورَّاقُ بِتبييضِ مسوداتِ كتابِ الصِّحاحِ.

وردَ «أَبو نَصرٍ الجوَهريُّ» مِنْ علومِ اللُّغةِ العربيَّةِ كُلَّ موردٍ، وصالَ وجالَ في رِحابِها كَفارسٍ لِلكلمةِ لا يُجارَى أَو يُبارَى في هذا المضمارِ، ذَكرَهُ أَبو الحُسينِ الباخرزيُّ فقالَ: «هوَ صاحبُ الصِّحاحِ (صحاحِ اللُّغةِ) لَمْ يَتأَخَّرْ فيها عَنْ شَرطِ أَقرانِهِ، ولا انْحدرَ عَنْ درجَةِ أَبناءِ زَمانِهِ».

وقَدْ ذكرَ «ابن رَشيدٍ القيروانيُّ» في كتابِهِ «العمدةِ في محاسنِ الشِّعرِ ومَساوئِهِ» أَنَّ «أَبا

نصرٍ الجوهريَّ» أَوَّلُ مَنِ استدركَ مِنْ عُلماءِ اللُّغةِ عَلى «الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ» علمَ العروضِ وزَادَ عليهِ ما فاتَ الفراهيديَّ مِنْ قَواعدِهِ ومبادئِهِ، قالَ القيروانيُّ: «ثُمَّ أَلَّفَ النَّاسُ بَعدهُ (أي بعدَ الفراهيديِّ)، واختلفوا عَلى مقاديرِ استنباطاتِهِمْ حَتَّى وَصلَ الأَمرُ إِلى «أَبي نصرٍ إِسماعيلَ بنِ حمَّادٍ الجوهريِّ»، فَبيَّنَ الأَشياءَ وأوضَحَها في اختصارٍ، وإِلى مَذهبِهِ يَذهبُ حُذَّاقُ أَهلِ الوَقتِ، وأَربابِ الصِّناعةِ، فَأَوَّلُ ما خالفَ فيهِ أَنْ جعلَ «الخَليلُ بنُ أَحمدَ» الأَجزاءَ الَّتِي يُوزَنُ بِها الشِّعرُ ثمانيَةً، مِنها اثنان خُماسيَّانِ وهيَ: مفاعيلُن، وفاعلاتُنْ، ومُستَفعِلُنْ، ومُفاعَلَتُنْ، ومُتْفاعِلُنْ، ومَفعولاتٌ، فَنقَّصَ «أَبو نَصرٍ الجَوهريُّ» مِنها جزءَ مَفعولاتٍ، وأَقامَ الدَّليلَ عَلى أَنَّهُ مَنقولٌ مِنْ «مُستَفعِ لُنْ» وهوَ يُريدُ أَنَّهُ ليسَ في الأَوزانِ وَزنٌ انفرَدَ بِهِ مَفعولاتٌ، ولا تكرَّرَ في قِسمٍ مِنهُ».

هذا وقَدْ جعلَ «الخليلُ» أَجناسَ الأَوزانِ خَمسَةَ عَشرَ جزءاً، ولَمْ يَذكُرْ وزنَ المُتدارِكِ، ورُبَّما زادَ عليها «الجوهريُّ» وزنَ المُتدارِكِ فَأَصبَحَتْ ستةَ عشرَ جزءاً.

كما كانَ «أَبو نَصرٍ الجوَهريُّ» شاعراً أَريباً وظَريفاً، ولَكنَّهُ كانَ مُقِلّاً مِنهُ، ومِنْ شعرِهِ الَّذِي رواهُ عنهُ تلميذُهُ أَبو إِسحاقَ بنُ صالحٍ الورَّاقُ، قَولُهُ:

يا ضائِعَ العُمرِ بِالأَماني ... أَما تَرى رَونقَ الزَّمانِ
فَقُمْ بِنا يا أَخا الملاهي ... نَخرج إِلى نَهرِ نَشتقانِ
لَعلَّنا نَجتَبي سُروراً ... حيثُ جنَى الجنتينِ داني
كأَنَّنا والقصورُ فيها ... بِحافَتَي كوثَرِ الجنانِ

الـطَّـيـرُ فـوقَ الـغـصـونِ تَـحـكـي بِـحُـسـنِ أَصـواتِـهـا الأَغـانـي
وأرسـل الـورقَ عـنـدلـيـبَ كـالـزيـرِ والـيَـمِّ والـمَـثـانـي
وبـركـةٌ حـولَـهـا أَنـاخَـتْ عَـشـرٌ مِـنَ الـدَّلـبِ واثـنـتـانِ
فُـرصَـتُـكَ الـيـومَ فَـاغْـتَـنِـمْـهـا فَـكـلُّ وَقـتٍ سِـواهُ فـانِ

كما تَتلمذَ عَلى يَدِ «أَبي نَصرٍ الجوهريِّ» الكثيرُ مِنَ العُلماءِ الأَنجابِ الَّذِيْنَ صاروا مِنْ كبارِ أَعلامِ الأُمَّةِ العربيَّةِ والإِسلاميَّةِ، ومِنهُمْ تلميذُهُ الَّذِي رَوَى عَنهُ أَبو إِسحاقَ إِبراهيمُ بنُ صالحٍ الورَّاقُ الأَديبُ والشَّاعرُ، وأَحدُ أَعلامِ اللُّغةِ في نيسابورَ، ومِنهُم العالمُ المعروفُ «ابن دوست» أَبو سَعيدٍ عبدُ الرَحمنِ بنُ مُحمَّدٍ صاحبُ التَّصانيفِ المُفيدةِ في اللُّغةِ والأَدبِ والنَّحوِ، وكانَ أَوجهَ مَنْ قَرأَ عَلَى الجوهريِّ اللُّغةَ، وكانَ زاهداً عارفاً فاضِلاً، وأَحدَ أَعيانِ أَئِمَّةِ اللُّغةِ في خرَّاسانَ.

❁ ❁ ❁

لا مريَةَ أَنَّ كتابَ «الصِّحاحِ في اللُّغةِ» أَشهرُ أَعمالِ «أَبي نَصرٍ الجوهريِّ»؛ إِذ حَقَّقَ لَهُ شهرةً واسعةً في الآفاقِ حَتَّى صارَ يُضربُ بِهِ المثلُ بينَ النَّاسِ عَلى ما حواهُ مِنْ معارفَ وفوائِدَ، وأَصبحَ مثلاً أَعلَى لِلفصاحةِ وحسنِ البيانِ، قالَ أَحدُ الشَعراءِ يَمدحُ السِّواكَ، مُشَبِّهاً صِحَّةَ خبرِهِ وفَصاحتِهِ وبيانِهِ عَنْ نَفسِهِ بِما رَواهُ الجوهريُّ في الصِّحاحِ:

نَـقـلَ الأراكُ بِـأَنَّ ريـقَ ثُـغـرِهِ مِـنْ قَـهـوَةٍ مُـزِجَـتْ بِـمـاءِ الـكـوثـرِ
قَـدْ صَـحَّ مـا نَـقـلَ الأَراكُ لأَنَّـهُ مَـنْ جـاءَ يَـروي عَـنْ صِـحـاحِ الـجـوهـري

وفيهِ يَقولُ الشَّيخُ أَبو إِسماعيلَ بنُ مُحمَّدِ بنِ عَبدوسٍ النيسابوري:

هـذا كـتـابُ الـصِّـحـاحِ أَحـسـنُ مـا صُـنِّـفَ قـبـلَ الـصِّـحـاحِ فـي الأَدب
تَـشـمـلُ أَبـوابُـهُ وتَـجـمـعُ مـا فُـرِّقَ فـي غـيـرِهِ مِـنَ الـكُـتُـب

وقَدِ اعتمدَ «أَبو نصرٍ الجوهريُّ» في تَرتيبِ موادِّ مُعجمِ «الصِّحاحِ» عَلى التَّرتيبِ الهجائيِّ.

وكادَ كتابُ «الصِّحاحِ» بِحُسنِ ترتيبِهِ أَنْ يُنسيَ النَّاسَ كُلَّ ما أُلِّفَ قبلَهُ مِنْ معاجمَ، وانصرفَ النَّاسُ إِليهِ يَنتخبونَ ويَختصرونَ ويَنعمونَ بِحُسنِ ترتيبِهِ، وجودةِ نِظامِهِ، ولَمْ تَمضِ مدةٌ مِنَ الدَّهرِ حَتَّى صارَتْ مُنتخباتُهُ تُعدُّ بِالعشراتِ، وتَملأُ رفوفَ المَكتباتِ، وأَغرَى ذَلكَ عُلماءَ اللُّغةِ بِسبرِ غورِهِ، وتَمحيصِ زُغلِهِ، وتَصويبِ أَخطائِهِ، فَاشتَهَرتْ بِهِ عشراتُ الكُتبِ الَّتِي عُنيَتْ بِهِ.

فَكانَتْ أَوَّلُ مُحاولَةٍ مِنْ هذا القبيلِ ـ على ما ذكَرَ الصَّفديُّ في الوافي بِالوفيَّاتِ ـ هيَ مُحاولَةُ «أَبي المعالي البُرمكيِّ اللُّغويِّ»، حيثُ صَنَّفَ كتابَهُ «المُنتَهَى» في اللُّغةِ نَقلاً عَنْ صِحاحِ الجوهريِّ، وكانَ مُعاصراً لَهُ.

ثُمَّ عَمدَ العلَّامةُ «شَمسُ الدِّينِ الصَّائِغُ الدمشقيُّ» المتوفى سنةَ (722) هجريَّةً إِلى اختصارِ صِحاحِ «الجوهريِّ» وتَجريدِهِ مِنَ الشَّواهدِ.

جاءَ مِنْ بَعدِهِما «أَبو الفضلِ جمالُ الدِّينِ بنُ منظورٍ اللُّغويُّ» وجمعَ بينَ صِحاحِ الجوهريِّ وكتابِ المُحكمِ لابن سيده وكتابِ تَهذيبِ اللُّغةِ لِلأَزهريِّ في (27) مجلَّداً وأَسماهُ «لِسانَ العربِ».

ثُمَّ تَوالَت الدِّراساتُ والشُّروحُ والاستدراكاتُ والاختصاراتُ عَلى صِحاحِ الجَوهريِّ حَتَّى بَلغَتْ عَلى ما قيلَ (109) من الأعمالِ أُلِّفَتْ فيهِ بينَ رِسالةٍ ومقالةٍ وكتابٍ، أَهمُّها:

«كتابُ التَّكملَةِ والذَّيلِ والصِّلةِ» لِلعلَّامةِ رَضيِّ الدينِ الصَّاغانيِّ إِمامِ اللُّغةِ في عَصرِهِ، جمعَ فيهِ ما أَهملَهُ الجوهريُّ، فَاستدركَ عليهِ ستينَ أَلفَ مادَّةٍ، ورَجعَ في كتابِهِ إِلى أَلفِ كتابٍ على ما قيلَ.

قالَ العلَّامةُ الصَفديُّ في كتابِهِ «غَوَّاصِ الصِّحاحِ» ـ وهوَ واحدٌ مِنْ أَربَعةِ كتبٍ لَهُ في الصِّحاحِ ـ: «إِنَّ كتابَ الصِّحاحِ لِلجوهريِّ مِنَ الكُتبِ المُفيدةِ، والمُصنَّفاتِ السَّعيدةِ، والمُؤلَّفاتِ الَّتِي قُصورُ مَحاسنِها مُشيَّدةٌ، اشْتُهِرَ بينَ النَّاسِ اشتهارَ المُحبِّ بِالإِدلالِ، والحبيبِ بالإِذلالِ، والقَمرِ في الهزيعِ بِالأَنوارِ، والزَّهرِ في الرَّبيعِ بِالأَنواءِ. وقَدْ أَحبَبْتُ جمعَ الغوامضِ الَّتِي في الصِّحاحِ، ورَشفَ ثغورِها الَّتِي تَفترُ عَنْ مباسمِ الأَقاحِ، ورَتَّبتُ ذَلِكَ عَلى حروفِ المُعجمِ... إلخ».

أَمَّا مُؤلَّفاتُ «أَبي نصرٍ الجوهريِّ» الأُخرَى فَهيَ:

ـ كتابُ المُقدِّمةِ في النَّحوِ.

ـ كتابُ العروضِ سَماه عروضَ الورقَةِ، وعارضَ بِهِ كتابَ العروضِ «لِلخليلِ بنِ أَحمدَ الفراهيديِّ».

الأسئلة والمناقشة

1 ـ مِنْ أَيِّ صنفٍ مِنَ العُلماءِ عُدَّ الجوهريُّ؟

2 ـ ماذا جمَعَ الجوهريُّ إلى جانبِ العلمِ؟

3 ـ ما أَصلُ الجوهريِّ، وكيفَ نُرجِّحُ حقيقةَ أَصلِهِ؟

4 ـ أينَ تَلقَّى الجوهريُّ علمهُ في بِدايةِ حياتِهِ العلميَّةِ؟

5 ـ مَنْ لازمَ الجوهري في بَغدادَ؟

6 ـ أينَ طافَ الجوهريُّ في رحلتِهِ العلميَّةِ؟

7 ـ كيَفَ ماتَ الجوهريُّ؟

8 ـ ما هيَ إِضافاتُ الجوهريِّ في علمِ العروضِ؟

الفيروزأبادي
صاحبُ القاموسِ
(729 ـ 817هـ)

الفَيروزُأبادي، صاحبُ القاموسِ المُحيطِ، وذو العِلمِ الواسعِ، والمَعرفَةِ الرَّاسخَةِ في عُلومِ اللُّغةِ العربيَّةِ والفِقهِ الإِسلامي، واحدٌ مِنْ عُلماءِ العربيَّةِ الَّذِيْنَ لا يُدركُ لَهُمْ أَمدٌ، ولا يُنكرُ لَـهُمْ فضلٌ في هذا العلمِ الَّذِي هوَ كَالبَحرِ اللُّجيِّ، ومَنْ يَخوضُهُ عليهِ أَنْ يَكونَ سابِحاً ماهراً مُجيداً، وبِالتَّالي غَوَّاصاً حاذِقاً قادراً عَلى اصطيادِ لآلئِهِ النَّفيسَةِ، واستخراجِ كُنوزِهِ الثَّمينَةِ، ولَقَدْ كانَ «الفَيروزُ أبادي» مِنْ قُوَّةِ الدِّرايَةِ، وسرعةِ الحفظِ، وجودَةِ الفَهمِ ما أَهَّلهُ لأَنْ يَكونَ سابِحاً عَظيماً في غِمارِ العلمِ، وصَياداً مُتَمكِّناً في بَساتينِ اللُّغةِ؛ يَنالُ كُلَّ ما يَرفُّ عَلى أَغصانِ عُلومِها، ويَقطفُ مِنْ ثِمارِها اليانعةِ، ويَخلعُ عَلى كاهليهِ مِنْ أَرديَتِها ثياباً خُضراً مِنْ سُندسٍ وإِسْتَبْرَق، ويَطوفُ عليهِ في أَرائِكِها ولدانٌ مُخلَّدونَ بِأَباريقَ وكَأسٍ مِنْ مَعينٍ.

ومَنْ مِنَ المَلأِ في العربِ والعجمِ، في دُنيا البَشرِ لَمْ يَسمعْ بِالفيروزأَبادي وبِمُعجمِهِ القاموسِ المُحيطِ الَّذِي هوَ أَشهرُ معاجمِ اللُّغةِ العربيَّةِ عَلى الإِطلاقِ؟!

لَقَدْ كانَ «الفيروزُأَبادي» مُؤمِناً أَشدَّ الإِيمانِ أَنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ هيَ أُمُّ العلومِ عِندَ العربِ والمُسلمينَ، وعَلى العالمِ بِها أنْ يَكونَ نَبيّاً ورَسولاً يُؤدي رِسالتَهُ المُقدَّسةَ فيها ويَنشرُها في الآفاقِ مِنْ أَجلِ أَنْ تُثمرَ عُلومُ الدِّينِ والدُّنيا مَعاً.

رحلَ الفيروزأبادي وسافرَ مِنْ بَلدٍ إِلى أُخرَى ومِنْ قَومٍ إِلى آخرينَ، وتَغرَّبَ عَنْ وَطنِهِ وأَهلِهِ وأَقرانِهِ، وتَحمَّلَ المَشاقَّ والصِّعابَ، كُلُّ ذَلكَ مِنْ أَجلِ الاستفادةِ بِالعلمِ، ونَشرِ ما يَحفَظُهُ مِنْهُ بينَ النَّاسِ، ومِنْ ناحيَةٍ أُخرَى مِنْ أَجلِ التَّلاقي والتَّعارفِ مَعَ العُلماءِ وأَربابِ اللُّغةِ العربيَّةِ في كُلِّ مَكانٍ نزلَ بِهِ؛ لأَنَّ هذا الأَمرَ كثيراً ما يُشبعُ نَهمَ العالمِ ويُروي ظَمأَهُ المُتعطِّشَ إِلى العلمِ والمَعرفَةِ.

أجَل، لَقَدْ فَرَّعَ «الفيروزُأَبادي» مَعرفَتَهُ بِاللُّغةِ العربيَّةِ تَفريعاً، وفَصَّل عِلمَهُ فيها تَفصيلاً، فَلَمْ يَبقَ مِنْ رِحابِها الواسعةِ أَمتاً ولا إِلّاً، إِلّا أَتاهُ كما يَردُ الظَمآنُ ماءً، حَتَّى إِذا عَبَّ وارتَوَى مِنها درايَةً وعِلماً، تفيأَ تَحتَ ظِلالِها الوارفَةِ تفيُّؤَ الشَّبعِ الهاجرِ المُثقلِ، فَذاعَ اسمُهُ في سَمائِها، وانتشرَ خَبرُهُ في شِعابِها، وطارَ اسمُهُ في الآفاقِ فَصارَ مَرجعاً لِلناسِ فيها، ومَلاذاً يُبتَغَى.

وقيلَ عَنْهُ: إِنَّه كانَ جوَّاداً كَريماً، لا يَقبضُ يَدهُ عَنْ مَعروفٍ، ولا يَرُدُّها عَنْ سائِلٍ، ويُنفِقُ ما يَدخلُ حوزتَهُ مِنْ مالٍ إِمَّا في سبيلِ العلمِ عَلى طَلبَتِهِ، أَو عَلى المُحتاجينَ الَّذِيْنَ يَقصدونَهُ، وإِما في صَدقةٍ أَو إِحسانٍ عابِرَينِ.

بَيْدَ أَنَّ جودَهُ وكرَمَهُ لَمْ يَقتَصِرْ عَلى المالِ وحَسْب، وإِنَّما فاضَتْ رِياضُ عَقلِهِ، وطافَتْ

جَنباتُ نَفسِهِ بِالعلمِ الزَّاخرِ الَّذِي يُنفِقُهُ في السَّفرِ والحَضرِ، وفي الصِّحةِ والمَرضِ، وفي الضُّحَى والسَّهرِ، عَلى كُلِّ طالبٍ أَو سائِلٍ يَستجديهِ العلمُ في أَضنَى الأَوقاتِ، وأَكثرِها شُحاً لِلبُعدِ عَنْ حديثِ النَّاسِ والتزامِ الرَّاحةِ والسَّكينةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ أَبو طاهرٍ مَجدُ الدِّينِ مُحمَّدُ بنُ يَعقوبَ بنِ محمَّدِ بنِ إِبراهيمَ بنِ عَمرو بنِ أَبي بَكرٍ بنِ أَحمدَ بنِ مَحمودِ بنِ إِدريسَ بنِ فَضلِ اللهِ ابْنِ الشَّيخِ أَبي إِسحاقَ الشِّيرازي.

وقيلَ: الكارزيُّ نِسبَةً إِلى كارزينَ، وهيَ قريَةٌ مِنْ قُرَى شيراز ولِدَ فيها، والشِّيرازيُّ نسبَةً إِلى مَدينةِ شيراز الَّتي نَشأَ فيها، ويُكَنَّى بِـ «الفيروزأَبادي» نسبَةً إِلى بَلدَةِ «فيروزأَباد» الَّتي هيَ بَلدةُ أَبيهِ وجَدِّهِ، وهيَ أَيضاً مِنْ نواحي شيراز. ويُعتبَرُ جَدُّهُ الأَعلَى أَبو إِسحاقَ الشِّيرازيُّ مِنْ كبارِ عُلماءِ شيراز في عَصرِهِ الَّذِيْنَ ذَكَرَهُمُ التَّاريخُ.

ولِدَ الفيروزُأَبادي في قَريَةِ كارزينَ سنةَ (729) هجريَّةً في بيتِ علمٍ وأدبٍ وتَقوَى، حيثُ كانَ أبوهُ مِنْ كبارِ أَعيانِ بَلدتِهِ ومِنَ العُلماءِ المعروفينَ بينَ أَهلِها الَّذِيْنَ يَتمتَّعونَ بِقدرٍ غيرِ قليلٍ مِنَ العلمِ بِاللُّغةِ والفقهِ وسائِرِ علومِ الشريعةِ الغراءِ.

هذا، وقَدْ صَرَّحَ الفيروزُأَبادي في القاموسِ المُحيطِ وهوَ يَشرحُ مادَّةَ «كرز» قالَ: «و(كارزين) بَلدٌ بِفارس مِنها محمَّدُ بنُ الحسنِ مُقرئُ الحرمِ، وبِهِ ولدتُ».

عُرِفَ الفيروزأَبادي مُنذُ صغرِهِ بِفطنتِهِ وذَكائِهِ، وبِسرعةِ بَدهيَّتِهِ وحفظِهِ، ويُقالُ: إِنَّه حفظَ القُرآنَ الكريمَ علَى يَدِ أبيهِ وهوَ لَمْ يَزلْ في السَّابعةِ مِنْ عُمرِهِ، وفي الثَّامنةِ انتقلَ إِلى

مَدينَةِ شيراز لِيتَلقَّى مَبادئَ العلمِ عَلى شُيوخِها وفُقهائِها، ويَذكرُ ابنُ حجرٍ العَسقلانيُّ (وهوَ تلميذُ الفيروزأبادي) أَنَّ أُستاذَهُ سَمعَ في شيرازَ صَحيحَ البُخاري عَلى العالمِ «مُحمَّدٍ بنِ يوسفَ الزَّرنديِّ»، وسَمعَ ونَظرَ في اللُّغةِ عَلى بَعضِ أَصحابِ الرَّشيدِ بنِ أَبي القاسمِ[1].

وكانَ لِلفيروزأَبادي ميلٌ واهتمامٌ كبيرانِ في اللُّغةِ منذُ صَغرِهِ، فَبرعَ فيها وفاقَ أَقرانَهُ في مَسائِلِها، وأَصبحَ مِنَ العُلماءِ العارفينَ بِها وهوَ لَمْ يَشُبَّ عن الطَّوقِ بَعدُ. وعِندما اشتُهِرَ وعُرِفَ بينَ عُلماءِ شيراز بِعلمِهِ الغزيرِ، وحفظِهِ لِمتونِ العلمِ، يَمَّمَ وَجهَهُ شَطرَ بِلادِ الشَّامِ والعراقِ، فَزارَ مَدينةَ بَغدادَ وواسِط في العراقِ، ثُمَّ دَخلَ دمشقَ وأَقامَ فيها فترةً سَمعَ خِلالَها إِلى كبارِ عُلماءِ اللُّغةِ والأَدبِ والفقهِ والتَّفسيرِ والحديثِ، وكانَ مِنْ جملةِ العُلماءِ الَّذِيْنَ التَقَى بِهِمْ وأَخذَ عَنهُمْ في الدِّيارِ الشَّاميَّةِ: «ابنُ الخبَّازِ»، و«ابنُ القَيِّمِ»، و«ابنُ الحمويِّ»، والشَّيخُ «تَقيُّ الدينِ السبكيُّ»، و«أَحمدُ بنُ مطرَ النابلسيُّ»، وغيرُهُمْ.

ونالَ في دمشقَ شهرةً واسعةً، وحَظيَ بِمحبَّةٍ واحترامِ أَهلِها، ثُمَّ ارتحلَ إِلى القُدسِ ولَقيَ فيها العالمينِ الجليلينِ «العلائيَّ» و«البيَانيَّ» وسَمعَ مِنهُما، ثُمَّ قَصدَ القاهرَةَ فَدخَلها ولَقيَ فيها «ناصرَ الدِّينِ التُّونسيَّ» والخَطيبَ عالمَ اللُّغةِ المعروفَ بـ «ابنِ نباتَةَ»، و«القَلانسيَّ»، و«الفارقيَّ»، و«العزَّ بنِ جماعةَ» وغيرَهُمْ، وتَلقَّى عَنهُمُ العلمَ جَميعاً، كما لَقيَهُ فيها المؤرِّخُ والشَّاعرُ الشَّهيرُ «الصَّلاحُ الصَّفديُّ».

ثُمَّ رَحلَ إِلى الدِّيارِ المُقدَّسَةِ فَسمعَ في مكَّةَ إِلى «الخليلِ المالكيِّ» الفَقيهِ صاحبِ

(1) الرّشيد بن أبي القاسم مِنْ علماء اللّغة، وكان له أصحاب وتلاميذ في شيراز.

المُختصرِ، والمُحدِّثِ «الحرازيِّ»، ثُمَّ جالَ بَعدَها في بِلادِ فارس والهندِ والتُّركِ واليَمنِ حَتَّى استَقرَّ بِهِ المُقامُ في مدينَةِ «زُبيدٍ» في اليَمنِ، فَما يَزالُ مُقيماً فيها إِلى حين وفاتِهِ سنةَ (817) هجريَّةً.

❋ ❋ ❋

يَذكرُ المُؤرِّخونَ أنَّ الفيروزأَبادي حَقَّقَ في هَذِهِ الرِّحلةِ الطَّويلةِ الَّتي قَصدَ مِنها تَحصيلَ العلمِ والمَعرفَةِ والاطِّلاعِ عَلى ثَقافاتِ الأُمَمِ وعُلومِهِمْ شُهرةً واسِعةً مِنْ أَدنَى بِلادِ الإِسلامِ إِلى أَقصاها، ولِهذا عِندما نَزلَ في مدينةِ «زبيدٍ» بِاليَمنِ، وأَرادَ أَنْ يُزمعَ مِنها إِلى مكَّةَ ويُجاورَ البيتَ الحرامَ، تَمسَّكَ بِهِ في «زبيدٍ» المَلكُ الأَشرفُ إِسماعيلُ لِما عَهدَ فيهِ مِنْ غزارةِ العلمِ وقُوَّةِ الحِجا وجَميلِ الصِّفاتِ والأَخلاقِ، وأَسندَ إِليهِ منصبَ القضاءِ.

فَأَرسلَ الفيروزُأبادي إِلى شيراز يَطلبُ أَهلَهُ لِلإِقامةِ مَعهُ في زبيدٍ، فَلمَّا حَضروا لَقوا مِنَ المَلكِ الأَشرفِ حُسنَ المُعامَلةِ، وكرمَ الوفادةِ، ومِمَّا عَزَّزَ صِلةَ الفيروزأَبادي وأُسرتِهِ بِالملكِ الأَشرفِ، أَنَّهُ كانَ لِلفيروزأَبادي ابنةٌ رائِعةُ الجمالِ، فَتزوَّجَ بِها المَلكُ وأَحسنَ مُعاملتَها، وأَنجبَ مِنها أَولاداً.

كما يَذكرُ المُؤرِّخونَ أَنَّهُ عِندما جاءَ الفيروزُأبادي إِلى الملكِ يَستأذنُهُ بِالخروجِ مِنَ اليَمنِ إِلى مكَّةَ، منعَهُ الملكُ الأَشرفُ مُتذرِّعاً لَهُ بِأَنَّ في خروجِهِ حِرماناً لِلبلادِ والعبادِ مِنْ علمِهِ، وقالَ لَهُ: «كانَتْ بِلادُ اليَمنِ عَمياءَ فَاسْتنارَتْ بِكَ، وقَدْ أَحيا اللهُ بِكَ ما كانَ مَيِّتاً مِنَ العلمِ، فَبِاللهِ عليكَ ما وَهبتَنا بَقيَّةَ عُمرِكَ».

ويُقالُ: إنَّ الفيروزأبادي أَلَّفَ كتاباً، وكَتبَهُ في صحائفَ مِنْ جلدٍ، وأرسلَهُ إلى الملكِ مَحمولاً عَلى أَطباقٍ كبيرةٍ، فَردَّ الملكُ الأَطباقَ إليهِ مَملوءةً بِالدَّراهمِ.

أَقامَ الفيروزأبادي في مدينةِ زبيدٍ بِاليَمنِ عزيزَ النَّفسِ، مُوقَّرَ الجانبِ، آمِناً في سِربِهِ مُعافًى في بَدنِهِ، يُحملُ إليهِ قُوتُ يَومِهِ، وكانَ مِنَ السَّعادةِ والطُّمأنينَةِ كَأَنَّما حيزَتْ لَهُ الدُّنيا بِأَسرِها. وكانَ لِلُّغةِ العربيَّةِ وعُلومِها النَّصيبُ الأَوفرُ من اهتماماتِهِ، فَانصرفَ إليها تَعليماً وتَصنيفاً، وتَوافدَ إليهِ طُلَّابُ العلمِ مِنْ كافَّةِ أَنحاءِ بِلادِ الإِسلامِ، يَنهلونَ مِنْ عِلمِهِ الغزيرِ، ومَعرفَتِهِ الواسعةِ حَتَّى استنارَتْ بِهِ بِلادُ اليَمنِ، وأَحيا اللهُ بِهِ ما كانَ ميِّتاً مِنَ العلمِ، حَتَّى نَبغَ في علمِ اللُّغةِ العربيَّةِ نُبوغاً عَظيماً فاقَ بِهِ عُلماءَ عَصرِهِ، وصارَ إماماً بِها يُقصَدُ ويُحتَذَى بِهِ فيما يَكتبُ ويَنثرُ مِنْ آراء ومُصطلحاتٍ ومفاهيمَ، فَأَلفَ في موطنِ إِقامَتِهِ أَكثرَ مُؤلَّفاتِهِ، وفي مُقدِّمَتِها مُعجَمُهُ «القاموسُ المُحيطُ» الَّذِي أَصبحَ قُرآنَ اللُّغةِ في عَصرِهِ وما بَعدَهُ.

وكانَ العالمُ والمُحدِّثُ والمُؤرِّخُ «ابنُ حجرٍ العَسقلانيُّ» مِنْ كبارِ تَلامذتِهِ، إذ يَذكرُ أَنَّ الفيروزأبادي ناولَهُ جُلَّ القاموسِ وأذنَ لَهُ في المناولَةِ أَنْ يَرويَهُ عنهُ، وأَنَّهُ قَرأَ عليهِ مِنهُ عدَّةَ أَجزاء، وأَنَّهُ أَنشدَهُ لِنفسِهِ سنةَ (800) هجريَّةً عِدَّةَ أَبياتٍ مِنْ شعرِهِ.

كما كانَ مِنْ تلاميذِ الفيروزأبادي الَّذِيْنَ أخذوا عَنهُ في مصرَ المُؤرِّخُ «صلاحُ الدِّينِ الصَّفديُّ» و«جمالُ الدِّينِ الأَسنويُّ» و«بهاءُ الدينِ بنُ عقيلٍ النَّحويُّ» شارحُ الأَلفيَّةِ، و«ابنُ هشامٍ النَّحويُّ» صاحبُ التَّصانيفِ المَشهورةِ في النَّحوِ واللُّغةِ.

❋ ❋ ❋

كانَ الفيروزأَبادي مُغرَماً جِدّاً في اقتناءِ الكُتبِ والمَخطوطاتِ في شَتَّى أَنواعِ المعرفَةِ، وكانَ أَكثرُ دَخلِهِ يوفرُّهُ لِشراءِ الكُتُبِ. وتُروَى عَنهُ في هذا الشَّأنِ الحكاياتُ والطَّرائِفُ العجيبةُ؛ فَقَدْ ذكرَ عنهُ مُترجِمو سيرَتِهِ أَنَّه كانَ يَحرصُ عَلى تَحصيلِ الكُتبِ مَهما عَزَّ نَسخُها وبلغَ ثَمنُها، وكانَ لا يُفارقُ الكُتُبَ في ظَعنٍ ولا إِقامةٍ، ولا يَبتعدُ عَنها في مُقامٍ أو سَفرٍ، فلا يُسافرُ إِلَّا وصَحبَتْهُ عدَّةُ أَحمالٍ كثيرةٍ مِنَ الكُتبِ، فَإِذا نزلَ منازلَ عَلى الطَّريقِ أَخرجَ الكُتبَ مِنْ أَماكنِها ونَظرَ فيها وقَضَى مِنها أَربَهُ، فَإِذا فَرغَ مِنْ ذَلِكَ أَعادها واستأنفَ رِحلتَهُ.

وإِلى جانبِ ذلكَ كانَ مولَعاً أَشدَّ الولعِ في التَّصدُّقِ عَلى المُحتاجينَ والإِنفاقِ عَلى نَفسِهِ، فكانَ لا يُمسكُ في راحتيهِ مالاً، فَإِذا نَفقَ مِنْ يَديهِ المالُ عَمدَ إِلى كُتُبِهِ فَيبيعُها ويُنفقُ مِنْ ثَمنِها، وعلى الرغم مما كانَ معه مِنْ دخلٍ وَفيرٍ، وكَذلكَ ما أَصابَهُ مِنْ هدايا وأُعطياتِ المُلوكِ والسَّلاطينِ، فإنه لَمْ يُعثرْ في جُعبَتِهِ أَيُّ شَيءٍ يُذكرُ بَعدَ وَفاتِهِ مَعَ ما كانَ يُظَنُّ فيهِ مِنْ غِنًى أَو اكتنازِ المالِ والنَّفائِسِ؛ لأَنَّهُ بلغَ مِنْ حَظِّهِ في الدُّنيا أَنَّهُ لَمْ يَدخُلْ بلداً إِلَّا ولاقَى مِنْ واليها أَو مَلكِها كُلَّ إِكرامٍ وحَفاوةٍ ومُبالغةٍ في العطاءِ، فَقَدْ بالغَ في إِكرامهِ وعطائِهِ كُلٌّ مِنِ «ابنِ شُجاعٍ» صاحبِ تبريزَ، و«الأَشرفِ شُعبانَ» سُلطانِ مِصرَ، و«الأَشرفِ إِسماعيلَ» ملكِ اليمنِ، و«بايزيدَ العُثمانيِّ» سُلطانِ الدَّولةِ العُثمانيَّةِ، و«أَحمدَ بنِ أُويسٍ الجلائريِّ» صاحبِ بَغدادَ، حَتَّى إِنَّ «تيمورلنكَ التَّتريَّ» بالغَ في الإِحسانِ إِليهِ، فَحينَ اجتمعَ بِهِ عَظَّمَهُ وأُعجبَ بِعلمِهِ ووَصلَهُ بِمئةِ أَلفِ درهمٍ.

فكانَ الفيروزأَبادي يُلاقي التَّبجيلَ والاحترامَ والإِجلالَ في كُلِّ مكانٍ نزلَ فيهِ مِنْ عامَّةِ

النَّاسِ وخاصَّتِهِمْ، كما كانَ صاحبَ ذَوقٍ رَفيعٍ في الكتابَةِ، ولَهُ خَطٌّ جَميلٌ رائِعٌ، وهوَ مِنْ جُملَةِ عُلماءِ العربِ والإسلامِ الَّذِيْنَ جَمعوا إِلى جانبِ العلمِ، فضيلةَ الخَطِّ الجميلِ.

❁ ❁ ❁

كانَ الفيروزأبادي عالماً موسوعياً، كتبَ وصَنَّفَ الكثيرَ مِنَ الكُتبِ والمُؤلَّفاتِ في شَتَّى علومِ اللُّغةِ والدِّينِ، ويَذكُرُ «ابنُ الطَّيِّبِ الفاسيُّ» قائِلاً عَنِ الفيروزأبادي: «وقَدْ سارَتِ الرُّكبانُ بِتصانيفِهِ ولا سيَّما القاموسُ فَإِنَّهُ أَعطى قبولاً كثيراً».

ومِنْ كُتبِهِ الَّتي أَبقاها التَاريخُ لَنا، وسَلمَتْ مِنَ الضَّياعِ كما ضاعَ الكثيرُ غيرُها:

1 ـ القاموسُ المُحيطُ: وهوَ معجمٌ ضَخمٌ مِنْ أَربعةِ أَجزاء، حَوَى كَمّاً هائِلاً مِنَ الأَلفاظِ ومُفرداتِ اللُّغةِ العربيَّةِ، وقَدْ أَثنَى عَليهِ «ابنُ حجرٍ العسقلانيُّ» قائِلاً: «لا مزيدَ عليهِ في حُسنِ الاختصارِ وكثيرِ الكلماتِ اللُّغويَّةِ، وكثيرٌ أَخذوهُ عَنهُ».

وغَنيٌّ عَنِ القَولِ أَنَّ القاموسَ المُحيطَ حَققَّ لِصاحبِهِ شُهرَةً واسِعَةً في تَمكُّنِهِ مِن اللُّغةِ العربيَّةِ وبَراعَتِهِ فيها، وكَذلِكَ لِمَنْ أَتوا بَعدَهُ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْنَ تَناولوهُ بِالشَّرحِ أَو التَّحقيقِ أَو التَّهذيبِ.

هذا، وقَدْ قامَ بِشرحِهِ وتَهذيبِهِ واستدراكِ ما فيهِ مِنْ نَقصٍ في بَعضِ المُفرداتِ والأَلفاظِ سنةَ (1201) هجريَّةً إِمامُ اللُّغةِ «الزَّبيديُّ» في كتابِهِ «تاجِ العروسِ مِنْ جواهرِ القاموسِ» وحَقَّقَ مِنْ خِلالِهِ شُهرةً واسعةً.

فَقَدْ أَثبتَ الفيروزأَبادي في تَصنيفِهِ مُعجمِ القاموسِ المُحيطِ، كثرةَ مَحفوظاتِهِ في اللُّغةِ،

وغزارةَ علمِهِ واطِّلاعِهِ عَلى لُغةِ الضَّادِ، وكذلِكَ مَعرفَتَهُ وخبرَتَهُ بِثقافاتِ البَشرِ عَلى اختلافِ لُغاتِهِمْ وألوانِهِمْ؛ إِذْ كانَ يُجيدُ أَكثرَ مِنْ لُغةٍ إِلى جانبِ لُغتِهِ الأُمِّ العربيَّةِ.

2 ـ الرَّوضُ المَسلوفُ فيما لَهُ اسمانِ إِلى الأُلوفِ: وهوَ كتابٌ في اللُّغةِ أَيضاً بَحثَ فيهِ في الأَسماءِ المُترادفَةِ وغيرِها.

3 ـ سَفرُ السَّعادةِ: وهوَ كتابٌ في علمِ التَّصوُّفِ، وأَخلاقِ السَّالكينَ إِلى اللهِ.

4 ـ كتابُ البُلغَةِ: وهوَ في تَراجمِ وأَخبارِ أَئِمَّةِ اللُّغةِ والنَّحوِ.

5 ـ كتابُ مَقصودِ ذَوي الأَلبابِ في علمِ الإِعرابِ: في علمِ النَّحوِ ومَبادئِهِ.

6 ـ كتابُ تَنويرِ المقياسِ في تَفسيرِ ابن عباسٍ: وهوَ شَرحٌ وتَهذيبٌ لِتفسيرِ ابن عبَّاسٍ لِلقُرآنِ الكريمِ.

7 ـ كتابُ منحِ الباري بِالسَّيلِ الفَسيحِ الجاري في شَرحِ صَحيحِ البُخاري: وهوَ كتابٌ شَرحَ فيهِ ما غمضَ بيانُهُ، وما أُشْكِلَ مَعناهُ مِنْ أَلفاظٍ وكلماتٍ في صَحيحِ البُخاري.

8 ـ كتابُ نُزهةِ الأَذهانِ في تاريخِ أَصبهانَ: وهوَ في التَّاريخِ، أَرَّخَ فيهِ لِتاريخِ أَصبهانَ وبلادِ خُرَّاسانَ، وأَهمِّ الأَحداثِ الَّتي جَرَتْ في المَنطقةِ.

9 ـ كتابُ المُرقاةِ الوفيَّةِ في طبقاتِ الحنَفيَّةِ: بَحثَ فيهِ عَنْ رِجالِ وفُقهاءِ المَذهبِ الحنفيِّ وأُصولِ مذهبِهِمُ الفقهيِّ.

وغيرُ هذِهِ الكُتبِ الَّذي يَضيقُ المقامُ عَنِ الحديثِ عَنها.

وهكذا يَتَّضحُ لَنا أَنَّ الفيروزأَبادي تَمثَّلَ في عِلمِهِ ثَقافَةَ عَصرِهِ بِمختلفِ علومِها

ومَعارِفِها، وعاشَ (90) عاماً في علمٍ وتَعليمٍ وتَصنيفٍ لَمْ يَهدأْ ولَمْ تَفتُرْ همَّتُهُ عَنْ ذَلكَ لَحظَةً واحدةً، ومات وهوَ صَحيحُ الجسدِ سَليمٌ في سَمعِهِ وبَصرِهِ وعقلِهِ قادرٌ عَلى الحديثِ، حيثُ بارَكَ اللهُ لَهُ في عُمرِهِ ونَسَأَ لَهُ في أَثرِهِ.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ بِماذا كانَ يُؤمنُ الفيروزأَبادي؟

2 ـ لِماذا رحلَ الفيروزأَبادي وسافرَ مِنْ بَلدٍ إِلى أُخرَى ومِنْ قَومٍ إِلى آخرينَ؟

3 ـ هَلْ كانَ كرمُ الأَبادي يَقتصرُ عَلى المال فَقَط؟ بيِّنْ ذَلكَ.

4 ـ لِماذا لُقِّبَ الفيروزأبادي بِهذا الاسمِ؟

5 ـ بِماذا عُرِفَ الفيروزُأَبادي مُنذُ صغرِهِ، ومتَى حَفظَ القرآنَ؟

6 ـ لِماذا تَمسَّكَ المَلكُ الأَشرفُ إِسماعيلُ بِالأَبادي؟

7 ـ ما هيَ أَهمُّ مُؤلَّفاتِ الأَبادي في علوم اللُّغةِ العربيَّةِ؟

8 ـ ماذا أَثبتَ الفيروزُأَبادي في تَصنيفِهِ مُعجم القاموسِ المُحيطِ؟

مرتضى الزبيدي
شَارِحُ القَاموسِ
(1145 ـ 1205هـ)

مُرتَضَى الزَّبيديُّ، شَارِحُ مُعجمِ القَاموسِ المُحيطِ لِلفيروزأبادي، الإمامُ العَلَّامةُ، والسَّيدُ الشَّريفُ، وقبلَةُ العِلمِ، وحجَّةُ عُلماءِ أَهلِ زَمانِهِ الَّذِي احتارَتْ بِهِ الأَفهامُ، وهامَتْ بِعلمِهِ وفَضلِهِ نُفوسُ العُلماءِ والعَوام، واحدٌ مِنْ عُلماءِ العربيَّةِ المُتأَخِّرينَ الَّذِيْنَ عاشوا في فَترةِ الحكمِ العُثماني لِبلادِ العربِ والإِسلامِ.

واكتَنَفَتْ حياتَهُ الكراماتُ والغرائِبُ والأَعاجيبُ، وبَدَتْ ـ مِنْ خلالِ ذَلكَ ـ شَخصيَّتُهُ مُحاطَةً بِهالَةٍ كبيرَةٍ مِنَ التَّقديسِ والإِجلالِ كما في حكاياتِ الخَيالِ والأَساطيرِ.

حَقَّقَ الإِمامُ مُرتَضَى الزَّبيديُّ بِعلمِهِ ووَرعِهِ، مِنَ التَّعظيمِ والإِجلالِ في أَعينِ النَّاسِ ونُفوسِهِمْ ما لَمْ يُحقِّقْهُ الأَكابرُ مِنَ الولاةِ والحُكَّامِ والأُمراءِ، فَقَدْ سكنَ قُلوبَ النَّاسِ بِعلمِهِ، وحازَ مَحبَّتَهُمْ، وهَيمَنَ عَلى عُقولِهِمْ بِتفانيهِ في نَشرِ العلمِ، وحرصِهِ عَلى تَعليمِ العامَّةِ والخاصَّةِ أُمورَ دينِهِمْ وأَحكامَ عَقيدتِهِمْ، ومبادئَ لُغَتِهِمُ الَّتِي يَفهمونَ مِنْ خِلالِها أَحكامَ الإِسلامِ في التَّنزيلِ الحكيمِ والسُّنَّةِ النَّبويَةِ المُطهَّرةِ، وصارَ في المعارفِ علماً

كَالمَحجَّةِ البيضاءِ، وقَصدهُ النَّاسُ مِنْ كُلِ حَدبٍ وصوبٍ، وسارَت إليهِ الرُّكبانُ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَميقٍ يَسمعونَ مِنهُ أَحكامَ لُغَتِهِمْ ودينِهِمْ، وطافَ بِمجلسِهِ ومَنزلِهِ الوزراءُ والأُمراءُ يَجتبونَهُ ويَحبونَهُ بِما يُجبَى إِليهِمْ مِنْ هَدايا وعَطايا وخيراتِ البِلادِ، وحَسبَ لَهُ الخُلفاءُ والحُكَّامُ أَلفَ حِسابٍ، فَمشوا إِليهِ بِأَرجلِهِمْ، وصارَتْ لِكَلمَتِهِ في نُفوسِهِمْ سُلطاناً وهيبَةً، فَلا يُرَدُّ عندَهُمْ لَهُ طَلبٌ، ولا يُخالفونَ لَهُ في الحادثاتِ رَأياً، ولا يُقدِّمونَ عليهِ في العلمِ أَحداً.

كما أَنَّهُ حَقَّقَ عِندَ أَهلِ مصرَ والمغربِ العربيِّ شَعبيَّةً واسعةً، حَتَّى إِنَّ أَهلَ المغربِ كانوا يَفيضونَ إِليهِ بَعدَ عودتِهِمْ مِنَ الدِّيارِ المُقدَّسةِ، ويَعتقِدونَ أَنَّ حَجَّهُمْ ناقِصاً إِنْ لَمْ يَنزلوا مصرَ ويَزوروا السَّيدَ الشَّريفَ، وسِراجَ العلمِ المُنيرِ، فَريدَ عَصرِهِ، وحُجَّةَ أَهلِ زمانِهِ الإِمامَ العلَّامةَ مُرتَضَى الزُّبيديَّ.

أَقولُ: إِنَّ العلَّامةَ الزُّبيديَّ بَلغَ في العلمِ شأواً عَظيماً، مِمَّا جعلَ بَعضَ العامَّةِ يَتبرَّكونَ بِالقُدومِ عليهِ، أَو بِمُلاقاتِهِ وتَقبيلِ يَديهِ، ورُبَّما مِنْ فَرطِ عِلمِهِ وذَكائِهِ وَجدوا فيهِ الأَحوال والكراماتِ، كما أَنَّ انْتهاءَ نَسبِهِ بِآلِ بيتِ النُّبوَّةِ، أَضفَى عَلَى شَخصِهِ قَدراً عَظيماً مِنَ الإِجلالِ والتَّوقيرِ مِنْ جانبِ النَّاسِ، كُلِّ النَّاسِ الَّذِيْنَ عاصَرَهُمْ وعايَشَهُمْ.

ما يَهمُّنا في هذا المَقامِ أَنْ نُشيرَ إِلى فَضلِ الزُّبيديِّ الكبيرِ بِما قَدَّمهُ مِنْ جُهودٍ في سبيلِ ارتقاءِ وتَطوُّرِ الشَّرحِ المُعجميِّ لأَلفاظِ اللُّغةِ العربيَّةِ؛ فَإِنَّ مُعجَمَهُ الشَّهيرَ بِـ «تاجِ العروسِ» في شَرحِ القاموسِ، كانَ قَفزَةً نوعيَّةً في هذا المضمارِ.

فَمَنْ هوَ مُرتَضى الزُّبيديُّ، وأينَ عاشَ، وما هيَ أَهمُّ معالمِ حياتِهِ؟

هذا ما سَنعرفُهُ في الصَّفحاتِ الآتيَةِ.

❋ ❋ ❋

هوَ الشَّيخُ الجليلُ، والعالمُ الفَهيمُ، والسَّيدُ الشَّريفُ، أَبو الفَيضِ محمَّدُ بنُ مُحمَّدِ بنِ مُحمَّدِ بنِ عبدِ الرَّزاقِ الحُسينيُّ الزَّبيديُّ، المُلقَّبُ بِـ «مُرتَضَى»، وهوَ مِنَ الأَشرافِ، يَنتَهي نَسبُهُ إِلى الإِمامِ زَينِ العابدينَ ابنِ الإِمامِ الحُسينِ ابنِ الإِمامِ عَليٍّ بنِ أَبي طالبٍ رضوان الله عليهم جَميعاً.

ويَذكُرُ «عَبدُ الحيِّ الحُسينيُّ» في كتابِهِ «نُزهةِ الخواطرِ وبَهجةِ المسامعِ والنَّواظرِ» إِلَى أَنَّهُ مِنْ أَحفادِ العالمِ الكبيرِ، والشَّيخِ الجليلِ «قادري بنِ ضياءِ اللهِ الحُسينيِّ الواسطيِّ البَلكراميِّ»[1].

والزَّبيديُّ نسبَةً إِلى بَلدتِهِ الَّتِي نَشأَ وتَرعرَعَ فيها بَلدةِ «زُبيدٍ» في اليَمنِ. ويَقولُ المُؤرِّخُ «عبدُ الرَّزاقِ البيطارُ» في كتابِهِ «حليَةِ البَشرِ في أَعيانِ القرنِ الثَّالثِ عَشر» فيه: «الإِمامُ الفاضلُ، والهُمامُ الكاملُ، قالَ صاحبُ «عَجائبِ الآثارِ» في تَرجمةِ هذا السَّيدِ المعدودِ مِنَ الأَخيارِ: هوَ عَلَمُ الأَعلامِ، والسَّاحرُ اللَّاعبُ بِالأَفهامِ، الَّذِي جابَ في اللُّغةِ والحديثِ كُلَّ فَجٍّ، وخاضَ مِنَ العلمِ كُلَّ لُجٍّ، المُذلَّلُ لَهُ سُبُل الكلامِ، الشَّاهدُ لَهُ الوَرقُ

(1) هوَ مِنْ كبار مشايخ الطريقة القادرية، ولدَ ونشأ بمدينة بلكرام وأخذ العلم عن والده وزار الحرمين ثم كربلاء وبلاد الشام وبغداد. توفي سنة 1145هـ ودفن في بلكرام، وأصله من مدينة واسط في العراق.

والأَقلامُ، ذو المعرفَةِ والمَعروفِ والعلمِ المَوصوفِ، العمدةُ الفَهَّامَةُ والسَّندُ العلَّامةُ، الفَقيهُ المُحدِّثُ، اللُّغويُّ النَّحويُّ الأُصوليُّ، النَّاظمُ النَّاثرُ».

ويَرجعُ أَصلُ الإِمامِ «مُرتَضَى الزُّبيديِّ» إِلى مَدينةِ (واسط) في العراقِ، ولَكِنَّ أَحدَ أَجدادِهِ سافرَ وأَقامَ في بِلادِ الهندِ لأَمرٍ ما لَمْ يَذكرْهُ المُؤَرِّخُونَ، رُبَّما بِسبَبِ سياسَةِ الاضطهادِ الَّتِي كانَ يُلاقيها أَعلامُ آلِ البيتِ مِنَ الحُكَّامِ والخُلفاءِ، فَهاجرَ كثيرٌ مِنْهُم إِلى بِلادِ الإِسلامِ النَّائيَةِ، بَعيداً عَنْ سَطوةِ الحُكَّامِ.

ولِدَ السَّيدُ «مُرتَضَى الزُّبيديُّ» في مَدينةِ بَلكرامَ الهنديَّةِ (وهيَ في باكستانَ حالياً) حيثُ كانَتْ تُقيمُ عائِلَتُهُ سنةَ (1145) هجريَّةً، وبَعدَ ولادتِهِ بِعدَّةِ سَنواتٍ سافرَ معَ ذَويهِ إِلى مدينةِ «زبيدٍ» في اليَمنِ فَنشأَ وتَرعرَعَ فيها، وكانَتْ مَدينةُ «زبيدٍ» ثاني أكبرِ مُدنِ اليَمنِ حينَها، وأَكثرها أَهميَّةً بَعدَ العاصمةِ صَنعاءَ، وكانَتْ مُلتَقَى التِّجاراتِ لأهلِ اليَمنِ القادمةِ مِنَ الحبشةِ ومِنَ الحجازِ، وتُشكِّلُ العَصبَ الاقتصاديَّ لِلبلادِ، هذا إِلى جانبِ أَهميَّتِها الثَّقافيَّةِ والعلميَّةِ، حيثُ كانَتْ تَعجُّ بِالعُلماءِ، ونُسِبَ إِليها كثيرٌ مِنَ العُلماءِ الَّذِيْنَ كانَ لَهُمْ حُضورُهُمْ عَلى صَفحاتِ التَّاريخِ العربيِّ والإِسلاميِّ، فَتَنقَّلَ «مُرتَضَى الزُّبيديُّ» بينَ عُلماءِ ومَشايخِ مَدينةِ «زبيدٍ» حَتَّى إِذا ما شَبَّ عنِ الطَّوقِ قَصدَ بِلادَ الحجازِ يَطلبُ مَزيداً مِنَ العلمِ، فَنزلَ في مَكَّةَ والتَقَى فيها بِالمُحدِّثِ والفَقيهِ «عَبدِ الرَّحمنِ العيدروسِ»[1] وقَرأَ عليهِ

(1) هو قطب العارفين أبو الفضل وجيه الدين عبد الرحمن بن مصطفى بن زين العابدين الشافعي الحسيني المُحدّث والمربي الفاضل، جال في البلاد العربية والإسلامية ودرَس فترة في الحرم المكي. وكانت وفاته بمصر سنة 1192هـ.

مُدَّةً، فَأَجازَهُ الشَّيخُ العيدروسُ بِمَروياتِهِ، وعندما وَجدَ الشَّيخُ العيدروسُ رغبَةً عارمةً في تَحصيلِ مَزيدٍ مِنَ المعرفَةِ، وكَذلِكَ في نَشرِ ما تَعلَّمَهُ بينَ النَّاسِ عندَ تلميذِهِ، نَصَحَهُ بِالذَّهابِ إِلى مِصرَ، فَرحلَ مِنْ مَكَّةَ إِليها، كما التَقَى «الزُّبيديُّ» بِعدَّةِ عُلماءَ غيرِ شَيخِهِ العيدروسِ، ونَهلَ مِنْ عُلومِهِمْ ومَعارفِهِمْ، وأَشهرِهِم:

الشَّيخُ العلَّامةُ «عبد اللهِ السَّنديُّ»، والشَّيخُ «عمَرُ بنُ أَحمدَ بنِ عقيلٍ المكيُّ»، والشَّيخُ «سُليمانُ بنُ يَحيَى»، و«ابنُ الطَّيِّبِ»، والمُسندُ «مُحمَّدُ بنُ عَلاءِ الدِّينِ المزجانيُّ»، وسَمعَ في الطَّائِفِ إِلى الشَّيخِ «عبدِ اللهِ الميرغَني الطَّائفيِّ».

❋ ❋ ❋

لَقَدِ استقبَلَ أَهلُ مصرَ «مُرتَضَى الزُّبيديَّ» خيرَ استقبالٍ، ولاقَى عِندَهُمُ الحَفاوَةَ والإِكرامَ لِما وَجدوا فيهِ مِنْ علمٍ زاخرٍ، ولِكونِهِ مِنْ أَقطابِ آلِ بيتِ النُّبوَّةِ، وأَيضاً لأَنَّهُ تلميذُ الشَّيخِ العيدروسِ الَّذِي كانَ صيتُهُ العلميُّ يَضربُ في طولِ البِلادِ الإِسلاميَّةِ وعَرضِها آنذاكَ.

وكما يَذكرُ المُؤرِّخُ «عبد الرزاقِ البيطارُ» الَّذِي كانَ مُعاصراً لِلزُّبيديِّ أَنَّ السيَّدَ «مُرتَضَى الزُّبيديَّ» وَردَ مصرَ سنةَ (1167) هجريَّةً، وسكنَ بِخانِ الصَّاغَةِ في القاهرةِ، وبَدأَ يَسمعُ إِلى مَشايخِ العلمِ المَشهورينَ في الدِّيارِ المِصريَّةِ آنذاكَ، فَأَخذَ العلمَ عَنِ الشَّيخِ «البليديِّ» والشَّيخِ «الصُّعيديِّ» والشَّيخِ «المُدابغيِّ» وعَنِ العالمِ «أَحمدَ الملَوي»، وأيضاً «الجوهريِّ»، ومِنْ ثمَّ أَجازوهُ بِما تَلَقَّى مِنهُمْ مِنْ علومٍ، وشَهدوا بِعلمِهِ وفَضلِهِ وجودةِ

حفظِهِ، واعتَنَى بِهِ كثيراً والي مِصرَ العُثمانيُّ «إسماعيلُ كَتخدا» حَتَّى راجَ أَمرُهُ وتَرونَقَ حالُهُ، ولبسَ المَلابسَ الفاخرةَ، ورَكبَ الخيولَ المُسوَّمةَ، وزارَ المُدنَ المصريَّةَ الكُبرَى في الصَّعيدِ، والسَّاحلِ، فاشتُهرَ ذكرُهُ عِندَ العامَّةِ والخاصَّةِ، وأَحبَّهُ النَّاسُ وبَجَّلوهُ كثيراً لِما لَمسوا مِنْهُ مِنْ أَحوالٍ وكَراماتٍ، وحرصٍ وتَفانٍ عَلى نَشرِ العلمِ وتَأديبِ الصِّبيانِ والشَّبابِ، حَتَّى إِنَّهُ لاقَى الحفاوَةَ مِنَ العربِ العرباءِ فَأَكرمَهُ شَيخُ العربِ «هُمامُ»، وكانَ يُستقبَلُ في المُدنِ والقُرَى والبَوادي استقبالَ المُلوكِ والأُمراءِ.

كما كانَتْ حَلقتُهُ العلميَّةُ عامرَةً بِالأَكابرِ والأَعيانِ، الَّذِيْنَ يَفدونَ إِليهِ لِسماعِ دروسِهِ ومواعظِهِ مِنْ كُلِّ ناحيةٍ، وكانوا يُغدقونَ عليهِ بِالهدايا وهوَ يُظهرُ لَهُمُ الغِنَى والتَّعفُّفَ، كما راسلَهُ وكاتبَهُ مُلوكُ الحجازِ والهندِ واليَمنِ والشَّامِ والمَغربِ الأَقصَى والتُّركِ والسُّودانِ والجزائِرِ، وترادَفَتْ عليهِ المُراسلاتُ مِنْ أَكابرِ الدَّولَةِ وواصلوهُ بِالهدايا والتُّحفِ الثَّمينَةِ والنَّادرةِ، فَكانَ يُرسلُ بَعضَها إِلى أَولادِ السُّلطانِ عبد الحميدِ الأَوَّلِ في الأَستانَةِ.

وأَرسلَ إِليهِ مَلكُ المَغربِ مولاي مُحمَّد ذاتَ مَرَّةٍ هَدايا ثَمينَةً وغاليَةً، فَرَدَّها «الزَّبيديُّ» إِليهِ ولَمْ يَقبلْها، بَلْ كانَ أَهلُ المَغربِ يَفدونَ إِليهِ ويَعتقدونَ فيهِ الولايَةَ والقُطبيَّةَ، وكانوا يَزعمونَ مِنْ فَرَطِ مَحبَّتِهِمْ لَهُ، أَنَّ مَنْ حَجَّ إِلى الدِّيارِ المُقدَّسَةِ ولَمْ يُعرِّجْ عليهِ في مصرَ لِزيارتِهِ، وتَقبيلِ يَديهِ فحَجُّهُ ناقِصٌ.

كما كانَ بَعضُ عُلماءِ الأَزهرِ في مصرَ يَقصدونَهُ لِلقراءَةِ عليهِ، ولأَخذِ الإِجازة مِنْهُ؛ لأَنَّ إِجازَتَهُ كانَتْ تُعدُّ أَعلَى دَرجاتِ الدِّراسةِ والتَّعلُّمِ، وتُعادلُ شَهادةَ الدُّكتوراه في عَصرنا

هَذا؛ لأَنَّهُ كانَ يَروي الأَحاديثَ بِمتونِها وأَسانيدِها، وبِتَعدُّدِ رِجالاتِها وطُرقِ رِواياتِها، ويُسنِدُ الآراءَ العلميَّةَ في شَتَّى العلومِ والمَعارفِ إِلى أَصحابِها بِحُجَجِها وأَسبابِها ومُسبِّباتِها، ويَذكُرُ المُناسباتِ أَو الحادثاتِ الَّتِي قيلَتْ فيها، وكلُّ ذَلكَ يَقولُهُ عَنْ ظَهرِ قَلبٍ.

❋ ❋ ❋

لَقَدْ كانَ أَهمَّ عَملٍ قامَ بِهِ «الزَّبيديُّ» في حياتِهِ، شَرحُهُ لِمُعجمِ القاموسِ المُحيطِ لِلفَيروزأبادي، وكَذلِكَ أَيضاً شرحُهُ لِكتابِ إِحياءِ علومِ الدِّينِ لِلغزاليِّ، فَهذانِ العَملانِ أَعطياهُ شُهرةً واسِعةً في كافَّةِ البُلدانِ الإِسلاميَّةِ، وكانَ مَجلسُهُ أَثناءَ شَرحِها يَكتَظُّ بِالشُّيوخِ والعُلماءِ والأَعيانِ فَضلاً عَنِ الطُّلابِ وعامَّةِ النَّاسِ، كَما كانَ لِوفاةِ زَوجَتِهِ «زُبيدةَ» أَثرٌ كبيرٌ في تَعاطُفِ النَّاسِ مَعهُ، والِتفافِهِمْ حَولَهُ لِسماعِ الشعرِ العاطفيِّ العذريِّ الَّذِي أَكثرَ مِنِ ارتجازِهِ بَعدَ فَقدِهِ مَحبوبَتَهُ وشَريكَةَ عُمرِهِ، حَتَّى صارَتْ زَوجَتُهُ السَّيدةُ «زُبيدةُ» مَثلاً سائِراً بينَ النَّاسِ يُطلقونَهُ عَلى المرأةِ المُعتدَّةِ بِجمالِها أَو حَسبِها ونَسَبِها، فَقَدْ دَفَنها في القاهرةِ قَريباً مِنْ مَشهدِ السَّيدَةِ «رُقيَّةَ» وضَربَ فَوقَهُ قُبَّةً، وبَنَى عندَهُ بيتاً صَغيراً أَقامَ فيهِ عدَّةَ أَيامٍ بَعدَ موتِها، واجتَمعَ عندهُ النَّاسُ والقُرَّاءُ والمُنشدونَ، وعملَ لَهُمُ الأَطعمةَ والثَّريدَ والشَّرابات، وقَصدَهُ الشُّعراءُ بِالقَصائِدِ والمَراثي، كما رَثاها بِعدَّةِ قَصائِدَ عَلى طَريقَةِ شعرِ مجنونِ ليلَى، فَمِمَّا قالَهُ في رِثائِها:

يَقولونَ: لا تَبكِ زُبيدةَ واتَّئِدْ وسَلْ هُمومَ النَّفسِ بِالذِّكرِ والصَّبرِ

وتَأتي لي الأَشجانُ مِنْ كُلِّ وجهَةٍ بِمختلفِ الأَحزانِ بِالهَمِّ والفكْرِ
أَبَى الدَّمعُ إِلَّا أَنْ يُعاهِدَ أَعيُني بِمحجرِها والقَدرُ يَجري إِلى القَدْرِ
فَأَما تَروني لا تَزالُ مَدامعي لَدَى ذِكرِها تَجري إِلى آخرِ العُمْرِ

ورغمَ أَنَّهُ تَزَوَّجَ بَعدها، فَإِنَّهُ لَمْ يَنسها، وكانَ يَتردَّدُ ويُقيمُ عِندَ قَبرِها بينَ الفترةِ والأُخرَى، وفي آخرِ عُمرِهِ اعتزلَ النَّاسَ، ومَكثَ في بيتِهِ لا يَخرجُ مِنهُ حَتَّى وفاتِهِ، بَعدَ أَنْ أصيبَ بِمرضِ الطَّاعونِ سنةَ (1205) هجريَّةً، تاركاً وراءَهُ ثَروَةً علميَّةً لا تُقدَّرُ بِثمنٍ، أَفادَ بِها المَكتبةَ العربيَّةَ والإِسلاميَّةَ عَلى مَرِّ الأَجيالِ والعُصورِ.

❁ ❁ ❁

لَقَدْ كانَ «مُرتَضى الزَّبيديُّ» موسوعةً علميَّةً، أَحاطَ بِمعارفِ عَصرِهِ إِحاطَةَ السِّوارِ مِنَ المعصمِ، وتَمَكَّنَ مِنْ كُلِّ علمٍ تَمَكُّنَ الطَّيرِ مِنَ الشَّجرِ، فَأَصبحَ يُغرِّدُ في سَماءِ العلمِ والمعرفَةِ وهوَ يَتنَقَّلُ مِنْ رَوضَةٍ إِلى أُخرَى، فَتَعدَّدَتْ مُؤلَّفاتُهُ ومُصنَّفاتُهُ في كُلِّ عِلمٍ مِنْ علومِ اللُّغةِ والشَّريعةِ، وكانَ أَهمُّها:

1 ـ تاجُ العروسِ مِنْ جواهرِ القاموسِ: في عشرِ أَجزاء، وكانَ الباعثَ الَّذِي دفعَ «الزَّبيديَّ» لِشرحِ قاموسِ الفيروزآبادي إِتمامُ النَّقصِ الَّذِي تَركَهُ الفيروزآبادي في قاموسِهِ، وكَذلكَ رَدُّ الاعتبارِ لِلجوهريِّ صاحبِ الصِّحاح الَّذِي انْتَقصَ مِنْ قَدرِهِ الفيروزآبادي وهوَ يَشرحُ مُعجمَ الصِّحاحِ لِلجوهريِّ، فَوضَعَ «الزَّبيديُّ» تاجَهُ الَّذِي يشرحُ فيهِ القاموسَ مُستَدركاً ما فاتَ الفيروزآبادي في قاموسِهِ. وفي مُقدِّمةِ التَّاجِ عَمدَ إِلى مَدحِ الجوهريِّ.

ومِنَ البَواعثِ الَّتِي دَفعَتِ «الزَّبيديَّ» أَيضاً إِلى شَرحِ القاموسِ اعتقادُهُ أَنَّ اللُّغةَ العربيَّةَ أَصلُ جَميعِ العُلومِ، وخاصَّةً عُلومِ الدِّينِ والشَّرعِ. يَقولُ «الزَّبيديُّ» بِهذا الصَّدَدِ في مُقدمَّةِ التَّاجِ: إِنَّني لَمْ أَقصدْ سِوَى هذِهِ اللُّغةِ الشَّريفةِ؛ إِذْ عَليها مَدارُ أَحكامِ الكتابِ العزيزِ، والسُّنةِ النَّبويَةِ الشَّريفَةِ.

اعتمَدَ «الزَّبيديُّ» في تَرتيبِ تاجِ العروسِ عَلى النَّسقِ ذاتِهِ الَّذِي اعتَمدَهُ الأَبادي في قاموسِهِ، فَبدأَ بِبابِ الهمزةِ، ثُمَّ بِفصلِ الباءِ مِنْ بابِ الهمزةِ، وهكذا هَلُمَّ جرا.

ويُقَالُ: إِنَّ «الزَّبيديَّ» عندما انتهَى مِنْ وَضعِ «تاجِ العروسِ» أَولَمَ وليمةً كبيرَةً جَمعَ فيها طُلَّابَ العلمِ ومَشايخَ الوَقتِ، وذَلكَ في سنةِ (1181) هجريَّةً.

2 ـ إِتحافُ السَّادةِ المُتَّقينَ في شرحِ إِحياءِ علومِ الدِّينِ: في عشرِ مُجلَّداتٍ أَيضاً، وكانَ لِشرحِ كتابِ الإِحياءِ لِلغزاليِّ، أَثرٌ كبيرٌ في إِقبالِ أَتباعِ الطُّرقِ الصُّوفيَّةِ والتفافِهِمْ حولَ «الزَّبيديِّ» وحضورِ مَجلسِهِ حينَها، وبِشكلٍ خاصٍّ إِمام الطُّرقِ الصُّوفيَّةِ في الدِّيارِ المَصريَّةِ وأَتباعه.

3 ـ وللزَّبيديِّ مُؤلَّفاتٌ أُخرَى في علومٍ مُختلفَةٍ ذَكرها المُؤَرِّخُونَ، مِنها:

ـ في علمِ الحديثِ والرِّوايةِ:

ـ شرحُ أَسانيدِ كُتبِ الحديثِ السِّتةِ.

ـ كشفُ اللِّثامِ عَنْ آدابِ الإِسلامِ.

ـ عقدُ الجمانِ في بيانِ شُعبِ الإِيمانِ.

ـ بلغةُ الغريبِ في مصطلحِ آثارِ الحبيبِ.

ـ وفي التَّاريخِ:

ـ جذوةُ الاقتباسِ في نسبِ بَني عباسٍ.

ـ الرَّوضُ المعطارُ في نَسبِ آلِ جعفرِ الطَّيارِ.

ـ مُزيلُ نِقابِ الخفاءِ عَنْ كِنَى ساداتِنا بَني الوفاءِ.

ـ وفي اللُّغةِ:

ـ مُختصرُ كتابِ العينِ لِلفراهيدي.

ـ التَّكملةُ والصِّلةُ والذَّيلُ لِلقاموسِ.

ـ وفي الفقهِ وأُصولِهِ:

ـ عقودُ الجواهرِ المُنيفةِ في شرحِ أَدلَّةِ أَبي حنيفةَ.

ـ نَشوةُ الارتياحِ في بيانِ حَقيقَةِ الميسرِ والقِداحِ.

الأسئلة والمناقشة

1 ـ ماذا اكتَنَفَتْ حياةُ الزُّبيديِّ، وكيفَ بَدَتْ شَخصيَّتُهُ؟

2 ـ لِماذا حازَ الزُّبيديُّ مَحبَّةَ النَّاسِ لَهُ؟

3 ـ كيفَ كانَ أَهلُ المَغربِ يَنظرونَ إِلى الزُّبيديِّ ويَعتقدونَ فيهِ؟

4 ـ إِلَى مَنْ يَنتهي نسب الزُّبيديِّ؟

5 ـ كيفَ كانتْ مدينةُ زبيدٍ عندما وفدَ الزُّبيديِّ إِليها؟

6 ـ لِماذا رحلَ الزُّبيديُّ إِلى الحجازِ ثُمَّ إِلى مصرَ؟

7 ـ ما هيَ أَسبابُ إِجلالِ أَهلِ مصرَ لِلزُّبيديِّ؟

8 ـ ما هيَ البواعثُ الَّتِي دفعَتِ الزُّبيديَّ لِتأَليفِ لِشرحِ القاموسِ المُحيطِ؟

المحتوى

الفَراهيدي أذكَى العرب 5
الأصمعي أسدُ الشِّعرِ 17
ابن السّكيت شارح دواوين الشعراء 29
ابن سيده إمام اللغة في الأندلس 41
ابن دريد أشعر العلماء 52
أبو منصور الأزهري مهذِّب اللغة 63
ابن منظور القاضي المحقِّق 75
أبو نصر الجوهري صاحب الصِّحاح 85
الفيروزأبادي صاحبُ القاموسِ 95
مرتضى الزبيدي شارِحُ القاموسِ 107
المحتوى 119